تجليات الأوبئة في الرواية العربية بين الواقع والتخييل

الاستاذ المشارك الدكتور حصة بنت زيد المفرح

قسم اللغة العربية / كلية العلوم الانسانية والاجتماعية / جامعة الملك سعود

الملخص:-

يهتم هذا البحث بقراءة تجليات الأوبئة في الرواية العربية من ٢٠٠٠-٢٠٢٠؛ إذ شغلت تجربة الوباء حيزًا من هذه الرواية منذ سنواتها المبكرة، ولعل الشكل الروائي هو الشكل الأمثل لتجسيد هذه التجربة؛ إذ يمكنه التقاط تفاصيل التجربة الوبائية بأبعادها كافة، من خبرات إنسانية تتجاوز أبعاده البيولوجية الجسدية إلى أبعاد اجتماعية ثقافية تشكل أنساقًا متنوعة. وقد تجلى هذا الاهتمام في الروايات التي اتخذت في تعاملها مع الوباء مسارات مختلفة، ومن هنا يسعى البحث إلى الوقوف على أنواع الروايات المشكلة لسرديات الوباء بحمولاتها الثقافية والاجتماعية والأيديولوجية، وقضاياها البيئية والبينية والتنبؤية، وكيفية تشكل الوباء فيها بين التأريخ أو التوثيق، والتخييل من خلال ربط الوباء الواقعي بتجارب الحاضر، واستشراف الوباء قبل وقوعه؛ إذ نتحدث عن مستقبل يرتبط بالواقع، فالوباء واقعي، حدث بالفعل لكن الرواية تستشرف عودته أو ظهوره بشكل أو بآخر.

كلمات مفتاحية: الوباء، الرواية العربية، النسق، السرد، تخييل، استشراف.

تاريخ الاستلام:٢٠٢٢/٠٣/١٦ **تاريخ القبول:**٢٠٢٢/٠٣/٢٣

The Epidemiological Manifestations in the Arabic Novel between Reality and Imagination

Asst. Prof. Dr. Hessah bint Zaid Al-Mufarih
Department of Arabic / College of Human and Social Sciences /University of King Saud

Abstract:

This research is concerned with reading the manifestations of epidemics in the Arabic novel from 2000-2020; the epidemic experience has occupied a part of this novel since its early years, and perhaps the novelistic form is the best form to embody this experience; it can capture the details of the epidemiological experience in all its dimensions, from human experiences that transcend its physical biological dimensions to socio-cultural dimensions that form diverse systems, this interest has been manifested in the novels that have taken different paths in dealing with the epidemic, and from here the research seeks to identify the types of novels that form the epidemic narratives with their cultural, social and ideological loads, and their environmental, interfacial and predictive issues.

Keywords: The epidemic, the Arabic novel,system, narrative,imagination.

Received:16/03/2022 **Accepted: 23/03/2022**

المقدمة:-

تعد الأوبئة من أهم المؤثرات في تشكيل التاريخ الإنساني عامة، كما تشكل حضورًا مبثوثًا في التاريخ الأدبي خاصة؛ إذ تناولها الأدباء من كتاب وشعراء في أعمال تصور المعاناة الإنسانية، وما يرتبط بها جراء تأثير الوباء وتداعياته؛ فكانت بذلك مصدرًا للإلهام الإبداعي ومادة موضوعية مهمة للسرد. وعلى الرغم من اختلاف التعامل مع الأوبئة من منظورات عدة: علمية وطبية وسياسية، فإن الأدب يتخذ لنفسه وجهة أخرى؛ فهو لا يعتزم - كعادته- تقديم حلول ممكنة لمواجهة الوباء، فذلك ليس هدفًا من أهدافه، وإنما يتجه نحو تصوير تجربة الوباء بتفاصيلها الدقيقة، وكيفية تعامل الإنسان معها بوصفه مستهدفًا ضمن هذه التجربة وجزءًا منها.

ويعرف الوباء بأنه المرض الذي يكون بلا هوية محددة في البداية، حالة مفاجئة تنتشر انتشارًا سريعًا[١]، وتبدأ المحاولات الطبية لرصده، والبحث عن أدوية ولقاحات مناسبة تساعد على الشفاء منه أو تقليل مضاعفاته أو الحد من انتشاره. وعلى الرغم من المسافة الفاصلة بين المرض والوباء إلا أن المرض إذا تفاقم وكثرت ضحاياه، وحضر في الروايات بهذه الصفة فإنه يتخذ شكل الوباء، كما أن كلًا منهما من الخبرات الإنسانية التي يجلو فيها الكاتب أحاسيسه ومشاعره تجاهها في لحظات فارقة من الحياة.

ويأتي استلهام الرواية العربية للأوبئة والأمراض والجوائح والحروب والكوارث والثورات؛ ليفتح التساؤلات حول تأثيرات مثل هذه الأحداث الكبرى على السرد، إذا ما كانت قد بلورت بالفعل فضاء إبداعيًا ومشتركًا إنسانيًا يتقاطع مع طبيعة هذه الأحداث التي تأخذ طابعًا يمس حياة الإنسانية عامة؛ انطلاقًا من أن الرواية والأدب عمومًا هو تعبير عن الحياة وتحركاتها وأحداثها المختلفة وأزمنتها المتعاقبة؛ مما يجعل من توظيف الأوبئة معبرًا لبلورة بعض المفاهيم وإحداث تغييرات ما.

وتنطلق علاقة الرواية بالأوبئة من ارتباط الرواية بالواقع وإن ابتعدت عنه؛ فالسرد خليط من التجربة الإنسانية الواقعية بثرائها من جهة، والتجربة التخييلية الإبداعية من جهة ثانية. ونميز هنا بين الروايات التي تستند على أوبئة واقعية يمكن أن تشكل فيها الأوبئة رمزًا أو استعارة ومع ذلك تظل محتفظة بهذا البعد الواقعي الذي نعنيه في عنوان البحث، والروايات الأخرى التي تطرح وباء متخيلًا لم يمر على تاريخ البشرية، أو تتعامل مع ظاهرة واقعية أو مرض فتجعله وباء منتشرًا بفعل تخييلي يذهب به إلى أبعاد أخرى، وقد يكون الوباء فكرة استشرافية تخييلية تنبؤية حين تكتب الرواية عن الوباء قبل حدوثه.

ويعتمد البحث مدونة متنوعة تعاملت مع الأوبئة من منظورات مختلفة، في إطار السياقين: الواقعي والتخييلي كما يشير العنوان، في الفترة الزمنية من ٢٠٠٠-٢٠٢٠، وهي الفترة التي كانت تراهن على التغيير؛ فقد استوعب الخطاب الروائي التحولات السريعة بخروجه عن السائد والمألوف، وأصبح أكثر انفتاحًا على

التجريب، وأخذت تجربة الوباء حظها في ذلك؛ فتميزت بخصائص وسمات بلورت طرائق جديدة للإبداع- على الرغم من وجود اختلاف بطبيعة الحال بين رواية وأخرى كما سيوضح البحث- مع استبعاد الروايات التي عبرت عن الأزمة الوبائية الحالية (كورونا/ كوفيد ١٩) إذ إن هذه التجارب لم تكتمل بعد لتؤسس لنفسها فضاء إبداعيًا خاصًا، كما أن سرد الوباء عادة يكتب خارج سياق الحدث نفسه، أي بعد أن تنتهي الجائحة، أو قبلها في رؤية استشرافية تخييلية . وتتمثل هذه المدونة في التالي: فئران أمي حصة، سعود السنعوسي[٢]، جيران أبي العباس، أحمد التوفيق[٣]، عطارد، محمد ربيع[٤]، أميركا، ربيع جابر[٥]، إيبولا ٧٦، أمير تاج السر[٦]، حرب الكلب الثانية، إبراهيم نصر الله[٧]، تراب، حسين المطوع[٨]، عين شمس، سعود الصاعدي[٩]، سفر برلك، مقبول العلوي[١٠]، هالوسين، إسماعيل مهنانة[١١]، الآدميون، إبراهيم سعدي[١٢]، أرذل الفقد، سيما محمد[١٣]، الدروازة في زمن الطاعون، هيثم بودي[١٤]، حمى قفار، علي بن محمد الحبردي[١٥]، مهاجر في زمن الجدري، عمار الخزنة[١٦]، أحلام القيامة، محمد جمال[١٧]، أشباح الجحيم، ياسمينة خضرا[١٨].

كما يعتمد البحث في تحليله لظاهرة حضور الوباء في الرواية العربية على قراءة ثقافية؛ فالنص الروائي منتج ثقافي لا ينفصل عن الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية، والأوبئة أزمة إنسانية ومن الطبيعي أن تهتم بها العلوم الإنسانية (الإنسانيات نصًا ودراسة) كما تهتم بها العلوم الطبية؛ إذ إنها تأخذ دورًا مهمًا وداعمًا للنموذج الطبي البيولوجي في قراءة الوباء وفهم أبعاده من خلال بعدين مهمين:

- النصوص الأدبية والفنية التي تركز على المعاناة البشرية إزاء الأوبئة.

- الدراسات النقدية والثقافية التي تركز على فهم مواقف المجتمعات إزاء الأوبئة، المجتمعات القوية والأخرى الهشة والضعيفة، والعوامل المرتبطة بتشكلها ومقاومتها في أنماط تفكيرية معينة، إضافة إلى الأطروحات الفكرية التي تناولت الأمراض والأوبئة.

وينطلق البحث من أسئلة ثلاثة:

- كيف استحضر الوباء في هذه الروايات، هل هو محرك رئيس للسرد أم وسيلة يستعان بها لدعم الأحداث السردية الأخرى؟
- كيف تمثلت الروايات الحدث الوبائي إبداعيًا، أي كيف نقلته من المستوى العلمي الطبي إلى المستوى الأدبي؟
- هل تمثل الوباء في أوبئة واقعية فقط، أم أن هناك أوبئة متخيلة من إبداع الكاتب نفسه؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، قسم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

- التمهيد: تناول في عرض موجز تأريخ الوباء في السرد العربي الحديث قبل عام ٢٠٠٠.
- المبحث الأول: تجليات الأوبئة في الرواية العربية (سؤال الأين).

- المبحث الثاني: تجليات الأوبئة في الرواية العربية بين الواقع والتخييل (سؤال الكيف).
- المبحث الثالث: أنساق التجربة الوبائية في الرواية العربية.

تمهيد/ تأريخ الوباء في السرد العربي الحديث قبل عام ٢٠٠٠:

يهتم هذا البحث كما أسلفنا بالأعمال الروائية العربية التي وظفت الأوبئة بعد عام ٢٠٠٠، لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن ظهور الأوبئة روائيًا ارتبط بهذه الفترة تحديدًا، وإن كانت لها خصوصية تتعلق بالتجريب في الرواية العربية الجديدة؛ فهناك أعمال سردية حضرت فيها الأوبئة قبل هذا التاريخ، وهي أعمال مهمة أحدثت أثرًا في السرد العربي الحديث، ويمكن أن نشير إلى بعضها مع ملاحظة ارتباط الوباء بالمرض؛ فالوباء في أصله مرض لكنه يتخذ صفة الانتشار كما أسلفنا، لذا فإن تجربة المرض كانت حاضرة في السرد العربي الحديث بين الرواية والسيرة، وسنشير إلى بعضها أدناه؛ إذ شكلت هذه التجربة مكونًا رئيسًا لخطابها السردي. وعلى حين تكون تجربة الوباء في نماذج السيرة الذاتية عادة ذات طابع واقعي وصدق مرجعي بوصفها تجربة واقعية عايشها صاحب السيرة وعبر عنها، فإن تجربة الوباء في الرواية تأخذ بعدًا تخييليًا مختلفًا يبتعد عن الواقع لكنه لا ينفصل عنه.

من الأعمال القصصية المبكرة قصة أو رواية توفيق يوسف عواد (الرغيف) عام ١٩٣٩ [١٩] وفيها سرد عن انتشار وباء الجدري في لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى، (المصابيح الزرق) عام ١٩٥٤ [٢٠] لحنا مينه التي تطرقت إلى وباء السل، ومثلها (السائرون نياما) ١٩٦٣ لسعد مكاوي إذ تستحضر في بعدها التاريخي وباء الطاعون الذي ينتقل من جيل الآباء إلى جيل الأبناء[٢١]. كما طرح هاني الراهب في رواية (الوباء)[٢٢] التطورات السياسية والاجتماعية في سوريا بعد عام ١٩٦٣، ورصد التحولات التي أصابت بعض الشرائح في ذلك المجتمع، مركزًا على فكرة حياة الأرض في مقابل الموت الذي عبر عنه الوباء.

وقد يعتمد بعض الكتاب وباء تخييليًا حتى لو استند على مرض حقيقي، كما في تصوير العجز الجنسي وباءً في (وقائع حارة الزعفراني) لجمال الغيطاني التي نشرت عام ١٩٧٥ [٢٣] ويكون انتشار الوباء بفعل رقية سحرية في إشارة إلى فناء الجنس البشري، وهناك (ملحمة الحرافيش) لنجيب محفوظ ١٩٧٧ [٢٤] التي تحدثت عن (وباء الشوطة) الغامض الذي سيكون نقطة تحول في حياة عاشور الناجي الذي اعتزل الناس أثناء الوباء، وعاد بعد انجلائه ليكتشف حقيقة موت أهل القرية التي أصبحت خاوية إلا منه؛ ليكون سيدًا مهابًا بصفته الجديدة الناجي عاشور وليتحول اسمه إلى (عاشور الناجي).

واتخذت بعض الأعمال الروائية من الأوبئة آلية مهمة في سرد حبكتها الروائية، كما في رواية (زهر الليمون) ١٩٨٧لعلاء الديب[٢٥] التي تحدث فيها عن وباء الكوليرا من خلال الشيخ حسن الذي يستعيد رحلته المفعمة بالألم والمعاناة وفقدان زوجاته وأبنائه بسبب هذا الوباء. أما في (براري الحمى) لإبراهيم نصر الله[٢٦] فتأخذ

الحمى أبعادًا متنوعة وترتبط رمزيتها بالمكان والزمان والنفس الإنسانية، وتخرج بذلك عن مفهومها المرتبط بالجسد عادة بوصفها عرضًا من أعراض المرض أو الوباء؛ حيث الوحدة والاغتراب الجسدي والنفسي وقسوة الصحراء.

ولعل من أهم هذه الأعمال في السيرة الذاتية (الأيام) لطه حسين ١٩٢٩ [٢٧] حيث انتشار وباء الكوليرا في مطلع القرن العشرين، وموت أخيه الأوسط طالب الطب الشاب بالكوليرا، وتصوير المعاناة جراء هذا الوباء، وارتباطه بأبعاد سياسية واجتماعية متنوعة.

المبحث الأول/ تجليات الأوبئة في الرواية العربية (سؤال الأين):

ما سنقدمه في هذا المبحث، والمبحث الذي يليه يقوم على سؤالين مهمين يتعلقان بتجليات الوباء في الرواية العربية، نبدأ بسؤال الأين لننتقل إلى سؤال الكيف. في سؤال الأين، نتحدث عن أنواع روائية نرصد فيها حضور الوباء، مع اختلاف التعامل معه من نوع إلى آخر، كما أن هذه الأنواع لا تنفصل عن بعضها، وإنما تتقاطع في كثير من الأحيان؛ مما يسمح باستخلاص سرديات للوباء منها، ويمكن أن نجملها في التالي:

١.الروايات التاريخية أو ذات البعد التاريخي:

تعد الرواية التاريخية أحد أهم أنواع الرواية، وهي عند جورج لوكاش((**رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات**))[٢٨] وعند بيوكن((**كل رواية تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ**))[٢٩] وهذا يجعل الرواية التاريخية تختص بفترة تاريخية معينة، ومحددة بأحداثها الشائعة وشخوصها وبيئتها الزمانية والمكانية، ويكون الهدف إعادة توظيف تلك الفترة بطابع تخييلي يبعدها عن الوثائقية التي تكون عادة سمة في التاريخ. وما يهمنا هنا أن هذا النوع من الروايات يستحضر الأوبئة بوصفها جزءًا من تلك الفترة التاريخية، وقد تأخذ بعدًا جديدًا في هذه الروايات، أو تظل محتفظة ببعدها التاريخي فحسب.

٢. روايات الخيال العلمي:

تتجاوز هذه الروايات المرجعيات الاجتماعية والثقافية والأيديولوجية إلى مرجعية فانتازية من خلال توظيف الخيال العلمي، وتدخل فيها الروايات الموجهة للطفل ذات الطابع نفسه. وهي تستحضر الأوبئة في هذه الأجواء؛ لتكشف عن أبعاد جديدة للوباء، يحول المخاوف من العولمة والتغيير وهدم هوية المجتمع إلى تهديدات في المستقبل ضمن حضارات وأجواء غريبة.

٢. روايات الديستوبيا (المدينة الفاسدة):

الديستوبيا أحد الأنواع المندرجة تحت أدب الخيال العلمي، حيث المدينة الفاسدة التي لا مكان للإنسانية فيها، إذ يلامس الواقع في خيباته وانكساراته وأزمة المجتمعات البشرية، كما يتحدث عن رؤية مستقبلية سوداوية وتشاؤمية وفقًا لمعطيات هذا الواقع محذرًا من عواقب محتملة في بعد نقدي لاذع، وهو عكس اليوتيوبيا[٣٠]

وتعتمد روايات الديستوبيا والخيال العلمي عمومًا على وجه للتخييل الأدبي ينطلق من استشراف المآسي التي تحيط بالبشرية والدمار الذي يحل بالأرض[٣١] وصولًا إلى انتفاء إنسانية الإنسان، كما تنطلق من الحاضر المؤلم المرعب إلى المستقبل الكارثي الأكثر إيلامًا ورعبًا، ومن هنا، فإن معالجتها للأوبئة يجعلها تنطلق من الأوبئة المعتادة التي أمكن علاجها والقضاء عليها في الواقع إلى أوبئة متخيلة مستعصية ذات تأثير كبير على الكون أجمع؛ ذلك أنها لا تستثني أحدًا أو منطقة دون أخرى، وتتخذ صفة العالمية لتصنع مع عوامل أخرى أفق هذا المستقبل الكارثي كما سنوضح ذلك لاحقًا. وتتعدد أشكال الديستوبيا في المدونة؛ لارتباطها في أصلها بقضايا متنوعة: دينية، اقتصادية، تكنولوجية، بيئية[٣٢] إذ تستحضر رواية أحلام القيامة الجانب الاقتصادي للديستوبيا المتضمن تحكم الشركات الكبرى في العالم ووضع السياسات للسيطرة على العقل البشري، وتعتمد رواية حرب الكلب الثانية ديستوبيا تكنولوجية، حيث التحكم في الناس بالتكنولوجيا التي تدمر حياة البشر، بينما تركز رواية هالوسين على التجكم في المجتمع من خلال إيديولوجية خطيرة وتطبيق خاطئ لتعاليم دينية، وسيرد تفصيل ذلك لاحقًا.

٤.الروايات/ السرديات البيئية:

ولئن كان الأدب الذي يكتب عن مخاطر الأوبئة وأثرها على البيئة قد ينتمي إلى أدب الخيال العلمي وأدب الكوارث وأدب الديستوبيا (المدينة الفاسدة) فإن ما يميز هذا النوع هو أن الأوبئة فيه قضية بيئية في المقام الأول، ولعل هذا الاتجاه لم تحفل به الرواية العربية في بداياتها؛ فقد كان اهتمامها منصبًا على قضايا المجتمع كالحب وحرية المرأة والمشاغل السياسية حتى لو استحضرت الوباء في بنيتها.

وتطرح هذه الروايات سؤالًا مهمًا: كيف يمكن أن تشكل البيئة هاجسًا ثقافيًا وعلميًا وأخلاقيًا لدى الأدباء كما هي كذلك عند أصحاب الاختصاص؟ حيث أسئلة البيئة ومخاطر التلوث ومخاطر الأوبئة الناتجة عنها، لاسيما أن البيئة قد طرأت عليها تغيرات كثيرة بسبب الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية التي حدثت في السنوات الأخيرة، تصوير نهاية العالم بأشكال مختلفة نتيجة هذه الكوارث[٣٣]، وكيف يمكن لهذه الكوارث الطبيعية والأوبئة ومسبباتها الفيروسية أن تدمر الأرض وتحول البشر إلى كائنات غريبة؛ متضمنة نهاية الحياة والنظام البيئي على هذه الأرض التي يعمرها الإنسان. ومع الأوبئة يتساوى عالم ما بعد بعالم ما قبل في تاريخ البشرية؛ حيث التحولات العميقة التي تحدثها الأوبئة فتهدم معها كل ما بناه الإنسان، وما يرتبط بذلك من خلل في المصالح الاقتصادية من تجارة وزراعة وغير ذلك.

ويدخل في اهتمامات البيئة حديث الروايات عن عوامل بيئية وراء تفشي الأوبئة والأمراض؛ فمسببات الأوبئة هي عوامل حيوية تعود إلى فيروسات وكائنات دقيقة تنتشر في الحيوان أولًا ثم تنتقل إلى الإنسان[٣٤] ولا شك أن ارتباط الوباء بالعدوى مؤشر مهم على كيفية تحول المرض إلى وباء بعد انتقاله من الحيوان إلى الإنسان،

والأمثلة على ذلك كثيرة (فيروس إيبولا/ كورونا/ إنفلونزا الطيور/ جنون البقر/ سارس/ الجمرة الخبيثة/ السل البقري/ داء الكلب).

٥. الروايات/ السرديات البينية:

تأسست فكرة البينية على مبدأ أنه لا يوجد فكر إلا في علاقة بفكر آخر؛ لذلك قد لا يصح أن ندرس حقلًا معرفيًا إلا في علاقته بحقل آخر[٣٥]، ويمكن أن نستعير هذا المفهوم لنقول معه: إنه لا يوجد نص سردي لا يتقاطع مع أجناس أدبية أو غير أدبية. وتجربة الوباء تجربة بينية تطل على الأدب من جهة وعلى الطب والمعارف الأخرى من تاريخ وعلم اجتماع وعلم نفس وغيرها من جهة ثانية. وحين نتحدث عن الوباء فنحن نستحضر عالم الطب قبل أن نستدعي مجالات معرفية أخرى؛ مما يشكل ما عرف بالعلوم الإنسانية الطبية في الأدب المقارن، إذ تقوم مثل هذه الدراسات البينية بين العلوم الإنسانية والأدب هنا تحديدًا والطب، من منطلق أن الفنون والآداب والعلوم الإنسانية من الممكن أن تقدم طرقًا مختلفة للتفكير في تاريخ البشرية وثقافتها وتفسير سلوكها ورصد خبراتها، وربط ذلك كله بالممارسات الطبية وأولويات اهتمامها، ولعل العلاقة الحاصلة بين الرواية وسجل العلوم مثل الطب يسمح للروائيين باعتماد الحقل العلمي وسيلة لكشف الجوانب الإبداعية وتأكيد دلالاتها[٣٦]، كما أن الطب والعلوم الصحية يمكن أن تفيد من الأدب في تحسين الممارسات الطبية والتعليم الطبي كذلك.

ومن هذا المنطلق، لا يمكن التعامل مع الطب في الأدب على أنه ممارسة علمية بحتة كما نتعامل معه في الفروع المعرفية الأخرى حتى في الروايات التي كتبها الأطباء أنفسهم، وهنا يمكن أن نقرأ الطب كما نقرأ الأدب بوصفهما نتاجين ثقافيين، يتأثران بالتغيرات الثقافية والحضارية والمعرفية التي تتعاقب على الشعوب والأمم. ونظرًا لوجود عدد من الأدباء الأطباء (أمير تاج السر، عمار الخزنة، أحمد خالد توفيق) فإن توظيفهم للأمراض والأوبئة يعلو فيه الصوت الطبي ليتجانس مع الصوت الأدبي، ويمكن أن نلحظ هذا التداخل بين الصوتين في رواية إيبولا((**لن يجاملهم إيبولا، ولن يحترم مهنة الطب التي يحترمها العالم**))[٣٧] وفي مقدمة رواية مهاجر في زمن الجدري((**وكطبيب، لم أستطع الابتعاد كثيرًا عن ثنائية الهجرة والجدري بالإضافة إلى التحديات الصحية والعلاجات الشعبية والأمراض المتصلة بالمهن القديمة مثل الغواصين والبحارة في فصول هذا العمل**))[٣٨] إذ يلتقط السرد عادة الوباء من زاوية آثاره وتداعياته على النفس الإنسانية التي يمكن أن تكون زاوية ثانوية في الخطاب الطبي العلمي؛ فالسرد يتحدث عن البعد الإنساني في الوباء لا علميته، وإن كانت بعض النماذج التي كتبها الأطباء الأدباء تمزج بين الرؤيتين ليتداخل فيها الطب بالأدب.

٦. الروايات/السرديات التنبؤية:

بالنظر إلى الزمن الروائي داخل الرواية والزمن الواقعي خارجها، فإن بينهما علاقتي الاتصال والانفصال في

الوقت نفسه؛ فالزمن الروائي له حضوره المختلف عن الزمن الواقعي إلا أنه لا يمكن ان ينفصل تمامًا عن ذلك الزمن؛ إذ قد يتجانس مع زمن ماض أو زمن مستقبل فيحقق استشرافًا لما لم يأت بعد، ومن هذا الزمن الأخير تتشكل السرديات التنبؤية. وتحذر مثل هذه السرديات عادة من مستقبل تسوده الإيديولوجيات المتطرفة والهويات المفتعلة والمتناقضات الغريبة، وما يحمله من عنف وخراب قد يكون نهاية للعالم، وهي تمزج في ذلك كله بين احتمالين: الاحتمال الواقعي والاحتمال المتخيل.

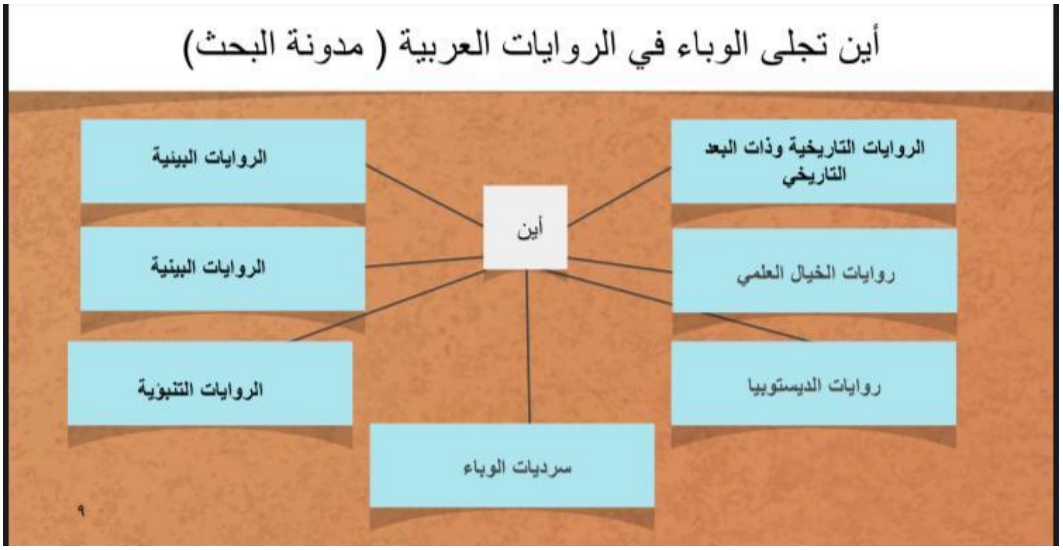

المبحث الثاني/ تجليات الأوبئة في الرواية العربية بين الواقع والتخييل(سؤال الكيف):

إن النظر في هذه الثنائية (الواقع والتخييل) التي هي جزء من عنوان البحث وعنوان هذا المبحث أيضًا؛ يقتضي التمييز بينهما قبل أن ندخل إلى رصد أشكال هذا التجلي. مفهوم التخييل حديثًا ليس ببعيد تمامًا عن المفهوم القديم له وإن اتسع المفهوم لدى البعض فأصبح يرتبط بالفنون كافة. وإذا كان التخييل نقطة التقاء الفنون الأدبية إذ قد يكون قصصيًا أو دراميًا أو شعريًا أو ملحميًا انطلاقًا من عدم استنساخ الواقع تمامًا، وإنما تجاوزه لتأسيس عالم الكتابة الأدبية [٣٩]فإن من معانيه الحديثة الأكثر تحديدًا ما ذكرته (دوريت كون): القصة المبتدعة من رواية وأقصوصة وغيرها، ضرب من الكلام المباين للحقيقة من جهة ما فيه من تضليل وكذب، إيهام بالواقع، الوجه المقابل للواقع والمضاد له، وفي الدراسات النظرية المتأخرة تحدد المصطلح في الدلالة على السمة القصصية ليكون رديفًا للقصص غير الإحالي، الذي لا يحيل على الواقع تمامًا، ويعود جينيت بهذا المفهوم إلى مصطلح المحاكاة الأرسطي؛ فالأصل في المحاكاة أن ينشئ الأديب قصة متخيلة بأحداث توهم أنها من الواقع[٤٠]وهنا تغدو مفارقة الواقع رغم محاكاته من أهم خصائص التخييل الأدبي[٤١] حين

تظهر لنا الرواية عالمًا من التخييل وكأنه عالم من الواقع[٤٢]كما لا يقتصر دور التخييل على تفعيل تخيل السرد الواقعي فحسب، وإنما يمتد إلى تخييل(السرد المتخيل) وإضافة عناصر غرائبية له.

وإذا كان الخطاب النقدي ينظر إلى التخييل بوصفه عنصرًا جوهريًا في النص الروائي، إلا أن التخييل حين يرتبط بظاهرة كما في الوباء فإنه لا يتضمن احتذاء واقع ما كما هو، أمر قائم بالفعل، على الرغم من أنه يستوحي أحداثه من ذلك الواقع. وإن كانت الرواية في دلالتها تحيل على بنية سردية متخيلة في الأصل، إلا أن الاهتمام هنا سيكون منصبًا على الأوبئة تحديدًا، وكيفية تحويلها من البعد الواقعي البحت إلى البعد التخييلي؛ فتغدو مقاربة الوباء وتخييله مقاربة تمثيلية ونسبية للواقع.

ويرتبط مصطلح التخييل بمصطلحات أخرى (التخييل الذاتي/ التخييل التاريخي) ويشتغل التخييل التاريخي في أحد أبعاده على المآسي التاريخية الجماعية، وتشكل الأوبئة والجوائح جزءًا مهمًا من هذه المآسي. كما يرتبط التخييل الذاتي بالتداخل بين الرواية والسيرة الذاتية، وبعيدًا عن هذين المصطلحين، فإن التخييل مصطلح قائم بذاته يتضمن الاستناد إلى الواقع الحقيقي، ثم محاولة تجاوزه وإعادة صياغته وتركيبه؛ بإضافة الأحداث والعناصر الأخرى التي لا وجود لها في الواقع، أو بتغيير مجرى الواقعي أو ممكن الحدوث للسمو إلى ما فوق الواقع، فالواقع في هذا السرد كان ويكون وسيكون ضمن ثلاثية تستحضر الماضي والحاضر والمستقبل أيضًا، كيف تتحول الرواية من ذاكرة الماضي إلى ذاكرة الحاضر ثم إلى ذاكرة المستقبل في استدعاء الوباء أو تخييله أو استشرافه أو تشكيله، كما يتضمن التنويع في الشخصيات وابتكار شخصيات جديدة، أو إعادة صياغة الشخصيات القديمة، وتخييل المكان الموازي للمكان الواقعي كما سيتضح في السطور التالية؛ إذ نشهد نماذج من الروايات استندت إلى عوالم حقيقية وهي تنشد التطابق بين الوباء وبعده الواقعي، وروايات أخرى تبحث عن العوالم الممكنة القائمة على تخييل الواقع، ونسبية التقاطع معه، إضافة إلى روايات تستحضر العوالم المستحيلة وهي تستند في تشخيصها للوباء على تجاوز الواقع لتغوص في عوالم الغرابة وتجاوز المألوف.

١. استدعاء الوباء الو اقعي/ تأريخ الوباء:

شكل التاريخ منذ بدايات الرواية مادة حكائية استقى منها الروائيون أعمالهم الروائية مضيفين لها مسحة من الإبداع الأدبي؛ ليخالفوا الطابع التقريري التاريخي في سرد الأحداث، وينتجوا خطابًا سرديًا قوامه التخييل من خلال استدعاء أو تسجيل الواقع بذكر الأحداث وتوثيقها ودمجها بوقائع جديدة، وغالبًا ما يكون الوباء هنا حدثًا جانبيًا في الرواية، أما التخييل المستند على استدعاء الوباء، فيعني خروج الأحداث عن صورتها الواقعية التوثيقية لتكتسب أبعادًا ووظائف جديدة.

لكن هل ستكون الرواية هنا تاريخًا أو وثيقة مدونة لتاريخ الوباء؟ ما الفاصل بين الرواية والكتابة التاريخية المجردة؟

يقدم بول ريكور فرضيته حول التمييز بين التاريخ بوصفه سردًا حقيقيًا واقعيًا والرواية بوصفها سردًا تخييليًا فـ "**الطابع المشترك للتجربة الإنسانية المميز والمتمفصل والموضح من لدن فعل الحكي في جميع أشكاله،**

إنما هو الطابع الزمني"[٤٣]، فالتجربة الإنسانية لدى ريكور قائمة على الزمن لكنها ستحدد من خلال السرد لتتحول إلى تجربة حية خلاقة؛ إذ تعتمد وقائع تاريخية معينة وتعيد صياغتها لتؤسس بعدًا جماليًا للواقع.

وهنا يمكن أن نفرق بين الروايات التي استدعت الوباء بوصفه حدثًا واقعيًا مباشرًا يظهر في فترة زمنية ما تستدعيها الرواية، فيكون استدعاء الوباء جزءًا من استعادة ذلك الزمان فحسب، والروايات التي استثمرت البعد الواقعي للوباء وجعلته محركًا لأحداثها السردية، أي أنها تعاملت مع الوباء بوصفه حدثًا واقعيًا يتصرف فيه الكاتب ويعالجه بالزيادة أو النقص أو التعديل ليقترب من المتخيل؛ إذ إن هذه النصوص لن تكون نصوصًا متخيلة خالصة؛ لأنها تنطلق من الواقع وتتحرك من خلاله. ويمكن أن نستشهد على ذلك بما ورد في رواية (سفر برلك) والخاتمة تحديدًا التي تضمنت حديثًا عن الرواية وظروف كتابتها، والوباء في الرواية سيكون مختلفًا مثلًا عن هذه التجربة في السيرة الذاتية أو الغيرية بطابعها الواقعي وصدقها المرجعي "**أخبرني بنتف من قصة جده ذيب، وهو اسم مستعار بكل تأكيد للضرورة الروائية والاعتبارات الشخصية، تلك القصة التي رويت لكم جزءًا منها في هذه الرواية مع إضافة الخيال الروائي بالطبع في كثير من أحداثها التي كان ذيب يحكيها قبل موته على أولاده ثم حكاها الأولاد للأحفاد فيما بعد، كما قال لي حفيده**"[٤٤] ومع ذلك فإن النموذج الواقعي للوباء يظهر في هذه الروايات متجانسًا مع البعد الواقعي له؛ حيث رصد الواقع من خلال التركيز على أوبئة حدثت بالفعل في تاريخ البشرية، وهنا نكون أمام تأريخ للوباء يتضمن توثيقه وعرض الأحداث الواقعية المتصلة به.

ويتجلى هذا النموذج الواقعي في كثير من الروايات سنشير إلى بعضها، كما في رواية (جيران أبي العباس) للمغربي أحمد التوفيق؛ إذ يتحدث عما أصاب المغاربة من أنواع الأوبئة في مراكش زمن الموحدين، وهي رواية تاريخية ذات بعد واقعي، كما تتضمن رواية (أرذل الفقد) لسيما محمد عرضًا تاريخيًا متسلسلًا يعود إلى زمن ما قبل الطفرة؛ حيث صعوبة الحياة والكوارث الطبيعية والأوبئة والجدري تحديدًا، لينتقل إلى زمن ما بعدها؛ حيث التطور الذي طال مجالات كثيرة: صحية وعلمية واجتماعية.

وترصد رواية (حمى قفار) لعلي الحبردي الأوبئة التي انتشرت قبل أكثر من ١٠٠ عام في ١٣٣٧ وقد حصدت أرواحًا كثيرة. كما تركز على ملامح الوباء مرتبطة بقفار في حائل تحديًدا، وهي أحداث واقعية أثبتها تاريخ هذه المنطقة متضمنًا وفاة أهل القرية كاملة بوباء غامض. ومن هنا، جاءت تسمية الوباء مرتبطة بالمنطقة نفسها ومعضدة بالحمى؛ لأن الوباء لا اسم له، والحمى قد لا تكون مرضًا في ذاتها لكنها مؤشر بارز على حدوث المرض، واستمرارها مؤشر خطير على خطورته، كما أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأوبئة الشائعة التي تكون من أهم أعراضها الحمى وارتفاع درجة حرارة الجسم لا سيما أنها تكون عاملًا مهمًا في تصوير الصراع بين الأجسام المضادة في الجسم وفيروسات المرض أو الوباء، وهي –طبيًا- دليل مهم على مقاومة الجسم للمرض والوباء.

ويحضر استدعاء الوباء في رواية (سفر برلك) لمقبول العلوي التي تستعرض فترة من تاريخ المدينة المنورة، حيث القرار الذي أصدره السلطان العثماني محمد رشاد عام ١٩١٤ لجعل الخدمة العسكرية إجبارية، وقد تضمنت تلك الفترة تهجير العثمانيين لأهالي المدينة المنورة بقيادة فخري باشا تهجيرًا قسريًا، والعنوان نفسه يحمل طابعًا تاريخيًا فهناك كتب تاريخ بالعنوان نفسه[٤٥]. وتستدعي الرواية في تلك الفترة وباء الجدري الذي أصاب والد الرواي بعد انتهاء موسم الحج مع حجاج من شنقيط، وكان هناك خياران أمامه إما الحجر الصحي أو الخروج من مكة[٤٦] ووباء التيفوئيد الذي انتشر في تلك الحقبة وحصد أرواح كثير من الناس[٤٧].

وفي رواية (عين شمس) لسعود الصاعدي، استدعاء حدث فقد الأب (والد الجد) في زمن الجدري ليتيتم الابن مبكرًا، وهي إشارة عابرة وردت في إحدى صفحات الرواية[٤٨]، كما ترد إشارة أخرى إلى فيروس إنفلونزا الطيور، لكن هذه الإشارة ليست عابرة كسابقتها بل تغدو ذات ارتباط وثيق بما يتلوها من أحداث؛ بل كانت ذات ارتباط وثيق بما يتلوها من احداث، وبما ينتاسب مع حضور الوباء فيها، اذ يغدو الطب- نتيجة ذلك- خياراً مناسباً لاحدى شخصياتها(ربيع) مما يؤشر لحضور العلاقة بين الطب والوباء. ومثلها رواية (مهاجر في زمن الجدري) لعمار الخزنة التي تستدعي وباء الجدري الذي أصاب الحلة في العراق وجعل أهلها يهجرون المنطقة، ولم يستقر فيها سوى البيوت الفقيرة التي كانت تعجز عن تكاليف السفر، أو كبار السن الذين لا تمكنهم صحتهم من تحمل عنائه، إضافة إلى فئة أصيبت بالوباء فاستسلمت له، فمات الكثير منهم وبقي القليل الذين حملوا بصمات الجدري على وجوههم إلى الأبد[٤٩].

٢. تخييل الوباء الو اقعي وربطه بالحاضر:

يشير ميشال بوتور إلى أن الرواية الجديدة هي تعبير عن أزمة الإنسان المعاصر وواقع متغير بسرعة، والتعامل مع القالب الاجتماعي للأحداث اليومية وصياغتها بطريقة تتجاوز مجرد التسجيل إلى خطاب الوعي[٥٠]، وهنا تدخل النصوص المتخيلة عادة في صنفين: من ناحية علاقة المتخيل بالواقع، ومن ناحية إمكان حدوث هذا المتخيل؛ فثمة نصوص قصصية متخيلة أقرب إلى ان تحاكي الواقع، ونصوص تنزع إلى الابتعاد عنه ابتعادًا يخرجها من حدود المعتاد[٥١]. وتذهب هامبورغر إلى أن ما يقوم به النص السردي المتخيل من أحداث تحاكي الواقع، مع مفارقة الواقع رغم محاكاته، يشكل أولى خصائص التخييل الأدبي[٥٢].

والانطلاق من تشخيص الوباء في الواقع من حيث المكان والزمان والتاريخ والشخصيات والأحداث، لا يجعل الروائي يركن إلى هذه المقومات الواقعية البحتة، بل يتحايل على هذا الواقع بشكل أو بآخر؛ إذ إن التخييل يقتضي ممارسة التجريب، وكسر النمط السردي القائم، عن طريق تمويه الواقع وتصعيد الخيال وتغريبه؛ لتشكيل عالم تخييلي قائم على مغايرة المخيال الواقعي/ المرجعي في فضاءين:

- فضاء تخييلي تماثلي: يتماهى مع الواقع والتاريخ والذاكرة الجمعية للقارئ فحسب.

- فضاء تخييلي فوق التماثلي/ يصطدم التخييلي بالواقعي، ويتقاطع فيه الممكن باللا ممكن.

ويمكن أن تشير الروايات إلى مثل هذا التفاعل بين الواقع والمتخيل في عتباتها، وقبل أن تبدأ النصوص نفسها كما في عتبة التصدير لرواية (إيبولا) التي تمزج بين الواقع والخيال؛ إذ تغدو هذه العتبة تنبيهًا ينفي التطابق بين التخييل السردي والواقع، بين شخصيات الطرفين الواقعية والمتخيلة،

في شهر أغسطس عام ١٩٧٦، ضرب فيروس إيبولا القاتل، الذي يسبّب الحمّى النزيفية، مناطق عديدة من جمهورية الكونغو كينشاسا، ومنطقة أنزارا الحدودية، في جنوب السودان، وقيل إن عاملاً بسيطاً في مصنع للنسيج، هو الذي جلبه. هذه ليست قصة عامل النسيج، ولا غيره من الشخوص الذين وردوا في هذا النص، ولكنها محض خيال بحت، لا علاقة له بالحقيقة مطلقاً. حتى ما ذكر عن التمرّد والحرب الأهلية، ليس صحيحاً، ولا يجب أن يحال إلى تواريخ حقيقية.

والكاتب في هذه الحالة يحفظ هيبة المتخيل السردي ويمنع تحويله إلى تاريخ أو واقع صرف، أو قد يميل إلى إثبات التشابه عكسيًا، فالاحتمالان واردان، وهذا يعني أن وباء إيبولا في الرواية لا يطابق الواقع، وإنما تسعى الرواية إلى تخييله من خلال قصة عامل النسيج الذي ينقل الفيروس في جسده وينشره في البلاد.

ومن مظاهر تخييل الوباء أن يكون شخصية روائية[٥٣]، كما في الرواية نفسها؛ فالوباء شخصية رئيسة تفكر وتخطط وتتحرك، حتى توقع بضحاياها الواحد تلو الآخر، وكأن الوباء/ الشخصية يغدو مكشوفًا أمام القارئ يعرف خفاياه وأدق تفاصيله ((**كأن إيبولا يضحك، كأنه يسخر من السلاطين وأولياء عهودهم، ويود لو ينطق ليذكر الناس كلهم ، أنهم موتى لا محالة**))[٥٤] وهناك صفحات كثيرة تصور الوباء شخصية تسهم في بناء الأحداث[٥٥]، وحين تقترب الرواية من العالم الواقعي وتوظف أماكن واقعية وتاريخًا واقعيًا أيضًا حين يكون الفيروس قاتلًا ((**وحده إيبولا الذي يرعى في دم عامل النسيج ودماء الآخرين الذين اقتنصهم من البارحة يعرف ويخطط وينفذ متى ما استطاع**))[٥٦]، وكيف تغدو رحلة الشخصية رحلة للوباء، الذي قرر هجر بلده الأصلي والانتقال إلى بلدان أخرى من جسد إحدى الضحايا الذي يغدو وباء إيبولا مترصدًا له، وخائفًا من تراجعه عن رحلته التي تعني تراجعًا لانتشار الوباء نفسه ((**لا يدري إيبولا القاتل... ما الذي لفت نظره في لويس نوا ليقرر الهجرة عبر دمه إلى بلاد أخرى بعد أن كثر عليه النباح في بلده الأصلي، وجندت الدولة ثعابينها وعقاربها وكل ما تمتلكه من خيروشر لملاحقته واكتشاف هويته**))[٥٧]. وفي موضع آخر، يرصد إيبولا تحركات الضحية وانتقالها من مكان إلى آخر لضمان زيادة عدد الضحايا فتغدو هذه التحركات مقصودة ومخطط لها ((**من وجهة نظر إيبولا، كفيروس قاتل، يترصد نوا ويسعى للهجرة داخله، ليجرب القتل في بلاد أخرى... تلك اللحظة خاف إيبولا بشدة ، خاف أن ينهي نوا جولته فجأة، ويتجه إلى إحدى الحافلات العائدة إلى بلاده، ويفقده، ليبدأ البحث عن زائر جديد**))[٥٨] ولاسيما أن شلدون واتس قد أشار

إلى أن تحركات البشر العمدية والقهرية، كانت عاملًا مهمًا في انتشار الأوبئة، ومن الفئات التي أسهمت في ذلك فئة (العاهرات)[٥٩] وهي الفئة التي اعتمدت عليها رواية إيبولا في انتقال الفيروس إلى عامل النسيج.

ويمكن أن نرصد في هذه الرواية أيضًا ما يحدثه الوباء في انتقاله إلى عالم السرد من تأثير على مصائر الشخصيات الروائية وتفاصيل الأحداث؛ إذ إن انتشار الوباء يمكن أن يضع احتمالية بقاء الشخصيات على قيد الحياة أو موتها نتيجة له، حين تموت الشخصيات في الرواية ليبقى الوباء مسيطرًا حدثًا وشخصية، وتعيش الشخصيات الأخرى بين الفاعلية والانهزامية لكنها تموت في النهاية؛ لينتصر الوباء القاتل.

ومن مظاهر تخييل الوباء التي تكاد تكون صفة مشتركة للروايات في هذا البعد، أننا نلحظ المراحل التي يمر بها الوباء منذ الإعلان عنه حتى عودة الحياة إلى طبيعتها؛ حيث بدء اكتشاف الوباء والإعلان عن الحالات الأولى ثم تفشيه بسرعة كبيرة دون تمييز، وهو ما عبرت عنه رواية مهاجر في زمن الجدري((**كان عادلًا فلم يفرق بين الصغار والعجائز، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، البحارة والمزارعين**))[٦٠] ، كما ترصد تعامل المسؤولين معه، والتحولات الناتجة عنه، إذ ترصد رواية أميركا التحول الصحي لوباء الأنفلونزا((**هذا الرشح مرعب. خلال ساعات قد يتحول إلى ذات الرئة ويختنق المريض بالدم الخارج من صدره**)) [٦١]، وفرض تدابير وقائية للحد من انتشاره أكثر كما في الحجر الصحي وحظر التجوال ثم رفعه، الذي قد يأخذ بعدًا تخييليًا كما في رفع الحجر المجازي عن الكلام في رواية الآدميون((**بعد رفع الحجر عن الكلام، يخوضون فيه بشراهة منقطعة النظير، معلنين نهاية الصمت**))[٦٢] ، ثم انحسار الوباء وقد خلف ما خلف من الأضرار والموتى، وحينها يعلن عن انفراج الأزمة. وتعرض الروايات هذه الأحداث باعتمادها على التصوير والوصف الذي يحول المشاهد السردية إلى رؤية بصرية أكثر من اعتمادها على السرد الروائي؛ إذ تتشكل الصور التي تبين حجم الجائحة وآثارها وتسيطر على تتابع الأحداث صورة الأماكن خالية من الناس، صور توابيت أو قبور الموتى، صور تأثر الأسواق المالية العالمية بالأزمة، وصور البشر الذين يرتدون أقنعة الوقاية في كل مكان، وهذه الصور لا تغادر الذاكرة البشرية بل تظل حاضرة فيها تستدعى كل مرة.

ومن صور تخييل الوباء ربطه بحاضر السرد والكتابة عنه؛ إذ تتشكل في الرواية صورتان للوباء: إحداهما تسترجع زمن الوباء، والأخرى ترصد ما بعد الوباء، وتطرح إشكالية تتعلق بنسيان الوباء بعد تجاوزه زمنيًا كما في رواية (أميركا) لربيع جابر. وعلى الرغم من أن الرواية قامت على ثيمات متنوعة وأحداث كثيرة امتدت لفترة زمنية طويلة إلا أن حضور الوباء فيها لم يكن حضورًا جانبيًا هامشيًا؛ فقد شغل مساحة لا بأس بها من الأحداث، وارتبط بالفترة الزمنية التاريخية الواقعية ١٩١٨- ١٩٢٠، وهي الفترة التي انتشر فيها وباء الإنفلونزا الإسبانية، وهذا الوباء –واقعيًا- فتك بالبشر؛ لذا عرض الراوي صورًا مختلفة لتأثير الوباء لا سيما على العرب المهاجرين (من أهل الشام) أو سورية الكبرى إلى أمريكا آنذاك، سرديات مشهدية مكثفة فيها يحضر

الوباء بتفاصيله؛ حيث الكمامات والتباعد الاجتماعي والحظر والعزلة والخوف ومشاعر الموت، وربما أكثرها قساوة تلك السيارات التي تنادي على الناس لإلقاء جثث موتاهم من الشبابيك بعد تفشي الموت بهذا الوباء إلى درجة يصعب معها دفن كل ميت في قبر خاص.

وما يميز هذه الرواية هو قدرتها على وضع حد لهذا الوباء، وتوقيع نهايته وتحويلها إلى ذكرى وتاريخ ماض سرعان ما يختلط بواقع أو حاضر مختلف، وكأنها تستشعر الفاصل بين حدث الوباء وما بعده/ ما قبل الوباء وما بعده، والتغيرات الحاصلة حين يمحو الزمن الجديد زمنًا آخر، أو يدخله في خانة التاريخ. وهناك إشارات مهمة إلى عدم الاهتمام بالوباء بعد انحساره، وكأنه لم يكن موجودًا في يوم ما، وكأن البشر لا يستشعرون خطورته إلا إذا عاد مرة أخرى ليحصد أرواحهم، أو ظهر في صورة وباء آخر ((**اجتمع ناس على الطريق ورقصوا وغنوا، وبينما يفعلون ذلك انتهت حقبة وبدأت أخرى. بعد هذا لن يسأل أحدهم الآخر أين بدأ هذا المرض، هل بدأ في كانساس، أم بدأ في الصين؟ كان ذلك بلا قيمة، من الماضي، ولا يؤثر فيه البشر. كان ذلك فظيعًا، أقسى من أن يحتمل، والأفضل رميه خارج التاريخ**))[٦٣] والراوي وهو يسجل هذه الأحداث الماضية يعلن أكثر من مرة بأن هذا التاريخ الوبائي لم يعط ما يستحقه في الكتابات بأنواعها، وبالتالي لم تهتم بما ترتب عليه، وما ارتبط به من جوانب أخرى كانت تستحق الدراسة.

يرى فوكو أن المجتمعات لا تتعامل مع الخطابات من منظور واحد؛ فهناك خطابات تمارس يوميًا، وينتهي أمرها بانتهاء الفعل المرافق لها، وهناك خطابات هي أصل لضروب الفعل الجديدة، وهنا يعاد تناولها والحديث عنها وتتمثل في النصوص الدينية والقانونية والأدبية والعلمية إلى حد ما[٦٤] وباستعارة هذا الرأي لفوكو وتطبيقه على الروايات- وهو ما تؤكده هذه الرواية- وتعاملها مع تجربة الوباء يمكن أن نميز بين ما يمارس من كتابة أثناء حدث الوباء نفسه، ونسيان الوباء بعدها ورميه من ذاكرة التاريخ حتى يعود من جديد، وما تمارسه سرديات الوباء حين تعيد تناول الحدث وتتمثله في صورة جديدة قد تقترب أو تبتعد عن صورته الواقعية القديمة.

وتعقد الرواية (أميركا) مقارنة بين الكتب التي تتناول الكوارث، فالحروب تحظى باهتمام المؤلفين ليصدر عدد كبير من الكتب عنها بينما لا تنال كتب الأوبئة هذا الاهتمام، على الرغم من أن ضراوة الوباء لا تقل عن الحروب في فتكه بالبشر وحصده لأرواحهم، إذ يتساءل الراوي مرارًا ((**لماذا طرد هذا الوباء خارج الذاكرة البشرية**))[٦٥] ويؤكد ما ترتضيه الجماعة في حال انحسار الوباء ((**والأفضل رميه خارج التاريخ**))[٦٦] فعلى قدر ما تكون هذه الأوبئة ذات تأثير جمعي على البشر في فترات زمنية مختلفة، تكون ردة الفعل تجاهها في حالة من شبه محاولة تجاوز هذه الأوبئة، وعدم إعادة إحياء ذكراها التاريخية من جديد، وكأن رفض الوباء بسلطته العنيفة ضد البشر يرتبط برفض آخر لذكراه التاريخية أيضًا، وإن كانت هناك حالة إعادة إحياء فهي لا تكون إلا على مستوى استدعاء الحدث وربطه بأحداث أخرى أكثر أهمية، أو عودة هذا الحدث تاريخيًا لتحدث الاستجابة له كتابيًا، هذا هو الغالب ولا يشذ عن ذلك إلا حالات نادرة.

وتتناول رواية (الدروازة في زمن الطاعون) لهيثم بودي انتشار الطاعون في الكويت في القرن قبل الماضي عام ١٨٣١ تحديدًا، وقد سميت السنة على إثره سنة الطاعون، وتتابع الرواية تسلسل أحداثه من بداية ظهوره وانتشاره وقضائه على الناس، حيث الموت الحتمي نتيجة وباء لا علاج له إلا من أسعفه القدر بحياة جديدة، وهي فترة مهمة من تاريخ الكويت.

تتكامل في هذه الرواية صورتان للوباء: صورة مباشرة ثابتة تحفظ لهذا الوباء تاريخه الخاص من خلال ما دون في الكتب، وتناقله كبار السن الذين عاشوا ذلك التاريخ، وما وثقته المصادر الأخرى لهذا الحدث وآثاره، وصورة أخرى تتشكل في الرواية من التخييل، وتستند على ذاكرة الحدث الماضية وذاكرة النص الجديدة، وهي لا تخرج تمامًا عن الصورة الأخرى، بل تتكامل معها لتكون هذا السرد التخييلي الذي يجمع بين الواقع والتخييل، وربما يجعلها ذلك تتجاوز أيضًا المنطقة المحلية التي ركزت عليها الرواية إلى التعبير عن المأساة الإنسانية.

ويتجانس هذا الوباء مع شكل آخر لا يقل خطورة عنه في فعل التدمير الجماعي، حيث الحرب التي تركت أثرها في الكويت وغيرت معالم العلاقات العربية والدولية أيضًا، الغزو العراقي الذي انقض على الكويت كالوباء في سرعته وانتشاره وما خلفه من دمار، حيث يعثر على مقبرة جماعية تكتشف في منطقة شرق لم يستطع أهالي المنطقة كشف لغزها، ترجح طبيبة الطب الجنائي أنها تعود لضحايا الطاعون من زمن مضى، وفي الوقت نفسه كانت تستقبل جثث الشهداء الكويتين الأسرى في العراق؛ فالحرب والوباء وجهان للدمار والتخريب والإبادة الجماعية.

٣. استشراف الوباء الو اقعي (مستقبل يرتبط بالو اقع):

إذا كانت الرواية في بعدها الزمني تقوم على الماضي واللحظة الزمنية الحاضرة أو الآنية، فإن الاستشراف يضيف لها بعدًا زمنيًا ثالثًا هو المستقبل، إذ هو "**رؤية فكرية وأدبية تقفز فوق شرفات متعددة... فالاستشراف قفزة فوق المسلمات السائدة، قفزة تكشفها رؤيا الأديب، الفنان وترصدها قبل وقوعها لتسكب ضوءًا فوق جسد الأحداث والتحولات**"[٦٧].

وحين نتحدث عن الوباء بوصفه فكرة استشرافية تخييلية؛ فإن الرواية هنا تكتب عن الوباء قبل حدوثه، ولا يمكن أن نغفل دور الجانب العلمي الطبي في تحقيق هذا الاستشراف نحو المستقبل كما في رواية (إيبولا) وكاتبها طبيب؛ فالأمر لا يتعلق برواية قادرة على استشراف المستقبل فحسب، بل بمدى استفادة هذه الرواية من كتابات علمية تستشرف بدورها وقائع وتصورات علمية مبنية على خبرة متراكمة في المجال العلمي الطبي، إضافة إلى أهمية عنصر الخيال الذي يرتكز عليه الأدب؛ فالروائي حين يستشرف المستقبل يعتمد رسم صورة متخيلة بناء على معطيات الواقع الحالي، وما يمكن أن يرتبط به مستقبلًا، والتصورات العلمية للحياة، وهي تجارب ثرية ومستمرة دون توقف، وتتجانس دائمًا مع سيرورة الزمن.

ظهر الوباء للمرة الأولى واقعيًا عام ١٩٩٦، وقد استندت الرواية في حكايتها السردية على هذ الواقع بعد تخييله بطبيعة الحال، لكن الرواية التي صدرت عام ٢٠١٢ كانت تتحدث عن انتشار الوباء مرة أخرى بعد هذا التاريخ، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ عاد الوباء بعد سنتين من صدور الرواية في عام ٢٠١٤. وظهر استشراف عودة الوباء في ختام الرواية ((**القصة لم تنته بعد، والاحتمالات كثيرة ومعقدة**)) وتتردد عبارة **(من المحتمل... ومن المحتمل)**[٦٨] لتؤسس عالمًا جديدًا لهذا الوباء، ويتضمن هذا التنبيه أن الوباء قادر على العودة في كل زمن ما لم تتغير أنماط الحياة من حيث الصحة والثقافة وحتى العلاقات الإنسانية ((**ربما تنشأ من العدم، مدينة جديدة، ستسمى بأي اسم، مدينة عادية، فيها شوارع ومتاجر، وملاه، ومواخير، وزيجات وطلاقات وقصص حب كاملة وناقصة، ومقابر للذين سيموتون في ما بعد، وشارع شبيه بشارع زومبي**))[٦٩].

يتساءل ريكور في كتابه الزمان والسرد ((**لماذا نعد الزمان شيئا غير قابل للعودة؟!**))[٧٠] وهو التساؤل نفسه الذي طرحته الرواية في آخر صفحاتها، وما يثبته الواقع بعد سنتين من صدور الرواية كما أسلفنا، كيف يمكن للوباء أن يأخذ وقتًا مستقطعًا للراحة ثم يعاود نشاطه؟! وقد يتغير مكانه لكن المهم أنه يظهر من جديد ليمارس سطوته على العالم أجمع؛ لأنه يأخذ سمة الكونية في ظل انتشاره وعدم استقراره في مكان واحد. وهو السؤال الذي طرحته رواية هالوسين أيضًا ((**بل ربما تكون فرضية حميد صائبة في أن فيروس الهالوسين قد طور بعدًا تاريخيًا في القدرة على الدخول في سبات عميق يعود بعد ذلك إلى الظهور أكثر شراسة وفتكًا**))[٧١].

والنبوءة أو الاستشراف للمستقبل تجد أصلها في الماضي كما يشير تودورف؛ لأن الزمن يكرر نفسه، والحسن الطالع أو السيء الطالع إنما يجري تحديده عن طريق البحث الحدسي عن قاسم مشترك بين الفترات المطابقة في الماضي، بشكل لا يمكن الفصل معه بين الماضي والمستقبل[٧٢]. تقوم رواية (فئران أمي حصة) لسعود السنعوسي على رؤية تجمع بين الماضي والمستقبل؛ فقد تردد فيها التحذير من الفئران وهي سبب رئيس لوباء الطاعون كما هو معروف، ويتكرر في الرواية ذكر هذه الفئران وآثارها وهي علامات دالة على وجود وباء الطاعون الذي لن يكون وباء حقيقيًا، غير أن الوباء هنا لا يطرح

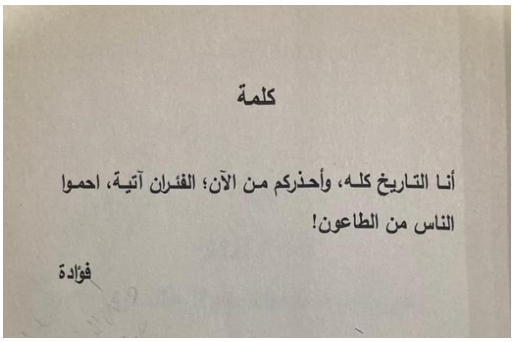
كلمة

أنا التاريخ كله، وأحذركم من الآن؛ الفئران آتية، احموا الناس من الطاعون!

فؤادة

بوصفه وباء واقعيًا له أبعاده الصحية أو الطبية المعروفة، وإنما بوصفه أنموذجًا صالحًا للتعبير عن عبثية الحياة، وسيطرة الأوبئة من حيث مفهوم الوباء نفسه؛ حيث الخطر الذي ينتشر سريعًا ويعم ضرره أشخاصًا كثر وتصعب مواجهته، فيتشكل الطاعون في الطائفية والانقسام بين سنة وشيعة، وانقسامات أخرى بين العرب تأخذ بعدًا سياسيًا (العلاقة مع الآخر: الكويتي والفلسطيني والكويتي والعراقي وهكذا).

يردد الراوي عبارة فؤادة مدرسة التاريخ المجنونة، إحدى شخصيات المصحة العقلية التي كانت ترددها في مسلسل على الدنيا السلام ((**الفئران آتية احموا الناس من الطاعون**))(٧٣) وتغدو هذه العبارة التحذيرية شعارًا للجماعة التي تأخذ على عاتقها حماية الناس من هذا الطاعون، والتحذير من انتشاره ((**صور لفئران مشطوبة بعلامة، وتحذيرات بدأت تنتشر مع انطلاق مجموعتنا: احموا الناس من الطاعون.. الفئران آتية.. ممهورة بتوقيع أولاد فؤادة**))(٧٤).

وتتخذ عتبة تاريخ النشر أهمية هنا؛ إذ نكون أمام ثلاثة أزمنة: زمن الكتابة، وعادة يوثق الكاتب هذا الزمن على الرواية، وهو زمن يسبق زمن النشر بلا شك، وزمن النشر(٢٠١٥)، وزمن مستقبلي يحدث بعد هذا الزمن؛ إذ يضيف الكاتب فصلين إلى الرواية توثق بتاريخ يعقب نشرها (نوفمبر ٢٠١٧) و(سبتمبر ٢٠٢٠) ليحذر من هذا الوباء الذي يمتد أكثر وأكثر في استشراف للأحداث من خلال الثلاثية (الفئران-الطاعون-الوباء) من حيث سماته لا من حيث وجوده الواقعي كما أسلفنا.

ضخمة، دكّت المجمّع التجاري العملاق وقتَ ذروته. قاطع نفسه: بدأت!

صرخ به فهد غاضبًا:

"إشاعات.. إشاعات!".

تمت
نوفمبر 2017

وحجارقم يركضون وراءنا. يلتفتُ أيوب إلى الخلف. يصيح: "بسرعة.. بسرعة". قبل نهاية الجسر، عند متاريس الأعلام السوداء في السُّرَّة، يخبو هدير محرك السيارة. يخمد. خزان الوقود فارغ إلا من الهواء. يفتح أيوب الباب. يلتفت إلى كائنات الجسر بوجه مذعور: "إنزل.. إركضْ!". أترجل أدوس عَرَجي في مقدّمة شارع طارق بن زياد. أتخلّص من نعليّ. لا ألتفتُ إليهما. أركض. يسبقني أيوب. يركضون وراءنا تحرسهم الطيور السوداء تُنشد نعيها. يُعطني أيوب. يمسكُ بيدي. نركض سويًا. يصيح واحدنا بالآخر: اركض.. اركض.. اركض..

يركضُ، أركضُ، تحت سماء أثقلَ سقوطها. قطرات على وجهي تدفعني أرفع رأسي عاليا. أرى بين غيوم متفرقة نجم سهيل يسرعُ في البعد، وشهابا يقطع الأفق.

تمت
سبتمبر 2020

وفي رواية (تراب) لحسين المطوع، يعايش بطل الرواية فهد الموت عن قرب في الوقت الذي يشيع فيه الوباء؛ إذ يحيط به الموت الجماعي بصفته حفارًا للقبور يفرح بقنائص الموت الجاهزة، وأحيانًا يرتب لنقل الضحايا إلى عالمهم الآخر. كما تستشرف الرواية المستقبل، وتبدأ الصفحة الأولى بتنبيه من الكاتب بأن أحداثها كلها حقيقية، وقد حدثت بتفاصيلها كاملة في الحياة الواقعية في زمن لم يأت بعد، في حين أن الرواية في واقعها ارتداد للماضي عبر المستقبل وكأنها تعالج الزمن الآني. وإضافة إلى هذا التنبيه هناك المقدمة التي قامت على الفعل الماضي(حصلت) للحديث عن زمن لم يأت بعد، ومن هذه المقدمة يعبر الكاتب إلى النص صانعًا الجدلية الزمنية بين الماضي والمستقبل، وهي الجدلية التي تقوم عليها الرواية؛ فالاستشراف بوصفه بناء لذاكرة المستقبل قد يستند على الماضي فيسرده بوصفه حدثًا ماضيًا أو حدثًا في الحاضر أو حدثًا يحافظ على صيغته المستقبلية؛ حين يصرح الكاتب بهذا الاستشراف، يقول ريكور: ((**يجب علينا أن نمتلك إدراكًا لمعنى**

الماضي لو أننا أردنا لخططنا المستقبلية ألا تتحول إلى مجرد يوتوبيا فارغة[٧٥] فالتعامل مع الماضي يكون بإعادة سرده وإعادة تفسير ما حدث للمستقبل، وهذان التوجهان نحو الماضي والمستقبل ليسا بمتعارضين؛ إذ نكون أمام قادم يشبه الماضي تمامًا، أو يستفيد منه في رسم صورة المستقبل.

وتعتمد روايات الديستوبيا استشراف مستقبل يدمر بفعل وباء متخيل، ومثل هذه الروايات لا تدور حول الوباء في زمن الجائحة وإنما بعده مستشرفة تغير أنماط الحياة، و إعادة تشكيل عوالم المجتمع أعقاب الوباء المتخيل، تغير أشكال العلاقات الاجتماعية والتفاعل الإنساني، المشكلات الجديدة الناتجة عن هذا التحول كما في رواية (أحلام القيامة) للروائي المصري محمد جمال، التي تدور أحداثها حول وباء ينتشر في مصر، وقد جاء من الخارج عن طريق العدوى في أحد المطارات الدولية، كما ترصد ظروفًا تتكرر في حال الأوبئة؛ حيث تزايد عدد الوفيات وآلية البحث عن لقاح لمواجهة الوباء. تقع الرواية بين الواقع والحلم وتختلط الأحداث فيها؛ لترصد انتشار وباء متحور عن الإنفلونزا (الإنفلونزا القرمزية) في دول العالم وتحديدًا إيطاليا، إنفلونزا متحورة عن أنواع أخرى انتشرت في العالم سابقًا، ويصل عدد المضاعفات فيها من عشرين إلى ثلاثين مرة[٧٦] وتصور الذعر ورصد حالات الموت الذي ساد في كل مكان، كما تشير إلى العقار الذي تطوره شركات الأدوية الضخمة وتتحكم فيه لتحقق أرباحًا خيالية.

تصل الرواية إلى مرحلة تفشي الوباء، وارتداء الكمامات، وانتشار علامات الوباء، ونقل العدوى بين المسافرين، وجثث الموتى التي تدفن في ملاعب، وصولًا إلى الرعب العالمي إزائه "**حاليًا الفيروس يضرب في أماكن مختلفة في أوروبا وأمريكا الجنوبية وآسيا.. أعراض محب نفسها والالتهابات نفسها التي تظهر على الذراعين وأماكن أخرى من الجسد**"[٧٧]. ويكون الأمل في نبيل المصري الذي يصاب بالوباء لكنه لا يموت في غضون ٤٨ إلى ٧٢ ساعة الحد الأقصى الذي تمكن الآخرون فيه من مقاومة الوباء، وإنما يحمل دمه مضادات طبيعية للفيروس تتجانس مع العقار، وتصبح وسيلة الشفاء الوحيدة من الوباء[٧٨]، كل ذلك يدور في أجواء كابوسية ذات بعد بوليسي تجعل الواقع يطابق الحلم الذي يسبقه تمامًا، وكأن الحلم يستشرف هذا الوباء واقعيًا ويصور أحواله ثم يضع نهاية له "**هل كان نبيل يتنبأ بما سيحدث له في حياته أم كانت أحلامه تملي عليه ما يجب فعله؟ هل كان نبيل مهووسا بالأحلام**"[٧٩].

٤. تشكيل الوباء (مستقبل ينفصل عن الو اقع):

تتفق المعاجم العربية على أن أصل التشكيل من (ش ك ل) الذي يحمل دلالات متنوعة تدعم استخدامنا لهذا المصطلح في التعامل مع تجربة الوباء:

- دلالة الموافقة والمماثلة: الشكل بالفتح: الشبه والمثل، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه: وافقه، والمشاكلة: الموافقة والتشاكل مثله[٨٠].

- دلالة الحركة في مفهوم التشكيل الذي يأتي على الصيغة الصرفية (تفعيل) الدالة على الحركة[٨١]. حيث استنتج منها أن لفظ التأويل الذي صيغ على هذا الوزن يدل على الحركة بالعودة إلى الأصول، ثم حركة أخرى للوصول إلى الغاية. ويمكن أن نقيس على ذلك مصطلح التشكيل ففيه حركة أولية من خلال مجموعة العناصر التي تكونه؛ إذ يتضمن حركة تأليف بينها للوصول إلى غاية ما، ثم هو حركة مضاعفة من خلال الاتسام بالمرونة والانفتاح على دلالة جديدة أكثر شمولية[٨٢].

وهو يختلف عن لفظ (التشكل) فالتشكل فعل ذاتي بينما التشكيل فعل غيري يتناسب مع مقصدية الكاتب[٨٣]، واختياراته الدالة لنوع الوباء، ثم دوره في تشكيل تجربة الوباء نفسها داخل الرواية بالاستفادة من عناصر الوباء المعتادة؛ حيث ظروف الإصابة والانتشار، والأثر الذي يتركه على الآخرين مرورًا بالإجراءات المتخذة للحد من انتشاره، والبحث عن علاج للقضاء عليه أو لقاح لمقاومته، إذ تأتي هذه التجربة لافتة للنظر في بنياتها سيميائيًا ولغويًا.

وإذا كان تشكيل الوباء يحمل في طيه معنى الاستشراف أيضًا، إلا أن الفرق بينهما أن الاستشراف يكون لوباء واقعي معروف تستشرف عودته مرة أخرى، أما التشكيل فيعتمد وباء متخيلًا لا وجود له في الحقيقة مستشرفًا إياه في المستقبل أيضًا، وقد يجتمع استشراف الوباء الواقعي بعد تخييله وتشكيل وباء غير واقعي في رواية واحدة كما في رواية (عطارد) للمصري محمد ربيع، وهي من الروايات الديستوبية التي تستشرف الوباء في هذا العالم الديستوبي الذي يحل الخراب فيه، وترصد أوبئة واقعية تحدث في هذا المستقبل الفاسد مثل: انتشار الكوليرا وإنفلونزا الحمير، وهذه الأوبئة تكون جزءًا بسيطًا من الموت الذي يحصد سكان القاهرة في عالم الرواية الكابوسي الغريب والمرعب. كما تسعى إلى تشكيل وباء جديد من خلال أحداث كابوسية يتداخل فيها المألوف بغير المألوف.

تتراوح أحداث الرواية بين أزمنة ثلاثة : زمن ماض ٤٥٥ هـ، وزمن حاضر ٢٠١١م فترة زمانية مقاربة للفترة التي كتبت فيها الرواية، وزمن لم يحدث بعد ٢٠٢٥ م مستقبل تستشرفه الرواية، وفي هذا المستقبل تتحدد معالم الوباء الجديد الذي يكون مزيجًا من أوبئة واقعية قديمة ووباء متخيل ((**الكوليرا و إنفلونزا الحمير عادتا للتفشي وسط الناس... لأن مرضًا قديما قد عاد للظهور ليضرب من هم دون العاشرة بضراوة، ليفقدهم البصر والسمع والقدرة على الكلام**))[٨٤]. يبدأ هذا الوباء من اكتشاف مزرعة خنازير، ولخوفهم من انتشار إنفلونزا الخنازير مرة أخرى، تقتل الخنازير كلها بطرق وحشية، يشهد مثل هذا الحدث ردة فعل متعاطفة مع الخنازير لدى ممن أجبروا على تعذيبها حتى الموت، وتدريجيًا يستسلم هؤلاء لنشوة القتل، ويصرخون من شدة النشوة مع استمرارهم في هذه الأفعال العنيفة[٨٥].

تعمد الرواية بعدها إلى تشكيل وباء يكون الإنسان فيه بلا وجه، حالة أولى لطفل تثير الرعب عندما يصل إلى المستشفى وتنفسه منضبط وتحاليل دمه سليمة، لكنه بلا ملاح للوجه، بلا عينين أو فم أو أذنين وحتى الأنف المعلم الوحيد الذي كان ظاهرًا سيسقط بعد أيام من مكوثه في المستشفى، مع الوقت تبدأ أعراض كثيرة في الظهور حين يفقد حواسه حتى حاسة اللمس ((**لم يعد يرتجف عندما تمس الإبرة جلده، لم يعد يحرك رأسه حينما يقربون قطعة قطن مشبعة بالكحول من أنفه**))(٨٦). يموت الطفل لكن العدوى تنتقل إلى أطفال آخرين ((**كانوا يأتون بهم وقد راحت إحدى الحواس، بلا عينين، أو بلا أنف أو بلا أذنين. يغيب البصر والشم والسمع مع غياب العضو. ثم تغلق الأعضاء الأخرى أو تسقط واحدًا تلو الآخر، دون ترتيب معين ودون توقيت ثابت. ولم يعد هناك مفر من تخصيص عنبر كامل لحالات الأطفال الذين فقدوا حواسهم**))(٨٧). لكن الحدث لا ينال اهتمامًا في وسائل الإعلام، ولا تتخذ وزارة الصحة خطة واضحة لمقاومة انتشاره، وعندها تتزايد الحالات في مختلف المحافظات(٨٨). وكحال الأوبئة عادة في الاختفاء ثم معاودة الظهور بالشكل نفسه أو في شكل آخر أشد ضراوة، يكتشف الأطباء وجوده منذ خمسة عشر عامًا، ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا أيضًا، كما أن إمكانية التعايش معه تظهر في مريضة استطاعت العيش أربعين عامًا بلا حواس(٨٩) ((**ومع ذلك استمروا في متابعة الحالات الموجودة داخل المستشفى... طريقة التعايش مع الحالة، وإن كانت قد انتقلت لشخص آخر أم لا، ومدة الإصابة بها**))(٩٠). ولا يخفى ما يدل عليه الوجه من ارتباط بالهوية بوصفه جزءًا مهمًا من جسد الإنسان، ومرآة للنفس وانعكاسًا للذات البشرية، وحين تختفي ملامحه تختفي معها العلامات المميزة لشخص عن الآخر.

وفي رواية (حرب الكلب الثانية) لإبراهيم نصر الله، التي تدخل ضمن المشروع الروائي للكاتب (شرفات) ويقرأ فيها المستقبل من خلال الماضي، يعلن الكاتب في بدايات الرواية ومن خلال عتبة التصدير تحديدًا أن هذه الأحداث تنفصل عن الحاضر لتعيش في زمنين: أحدهما مضى، والآخر منتظر في المستقبل، كما يشير الكاتب في عتبة فوقية إلى الابتكار، وتشكيل عالم الرواية الذي يكون الوباء جزءًا رئيسًا فيه، ومرتكزًا مهما للأحداث السردية التي تناوبت بين الحرب والوباء ((**حين تكتب رواية عن المستقبل ينبغي عليك أن تدرس أشياء كثيرة تم اختراعها حتى الآن وأن تتحسس رغبات البشر وتطلعهم لاختراعات جديدة مختلفة لم تنتج بعد وتخترعها أنت**))(٩١).

ويستشرف الكاتب من الوباء عالمًا جديدًا يقوم على هدم الآخر والقضاء على مقوماته وتغير طبيعة العلاقات الإنسانية فيه، وسيطرة النزعة المادية بعيدًا عن القيم الأخلاقية والإنسانية، راصدًا التشوه الذي يحدثه الإنسان في الطبيعة؛ حيث الاستنساخ بعملية مقصودة، ليتحول إلى تصوير جانب من عجز الإنسان عن

التحكم في الطبيعة حين تصبح العملية تلقائية وتنتشر مثل الوباء، ومحذرًا من الاكتشافات العلمية التي يمكن أن تسبب كوارث اجتماعية وكوارث بيئية كاختلاط الفصول وشح المواد الأساسية وتبعاتها.

ترتكز فكرة الرواية على اتفاقية إلغاء ذاكرة الناس والعمل على تحويل المستقبل، حيث الاستنساخ وإجراء عمليات جراحية لإحداث التشابه، وعدوى التشابه والتماثل تتحقق تدريجيًا؛ فبمجرد مكوث أحدهم مع شخص آخر لوقت طويل يصبح صورة طبق الأصل منه لا في شكله الخارجي فحسب بل في بنيته الداخلية أيضًا وسلوكه وتفكيره، في الذكريات والعادات والأفكار، بصمات الأصابع والصوت والعينين[٩٢]. ويرتبط الوباء لاحقًا بفكرة الإبادة، الإبادة في حال التشابه لا الاختلاف، إبادة البشر لبعضهم البعض محوًا لذاكرتهم التاريخية واختلافاتهم الفكرية ((**هذا تطور طبيعي بدأ قبل حرب الكلب وأشعلها، ثم تزايد بعد ذلك دون أن نلاحظ، كما لو أننا لم نكن نملك عيونًا ولا عقولًا**))[٩٣].

وباء متخيل يعاد تشكيله ليتخذ سمات الوباء الحقيقي ((**هل يكون السائق قد التقط العدوى قبل أن يصل إلى المستشفى أم بعد ذلك**))[٩٤] ((**كان الشبه ينتقل بالعدوى، بالملامسة، بمجرد وقوع نظر الواحد على الآخر**))[٩٥] وتتخذ كافة الإجراءات المعتادة في مواجهته كما في حظر التجوال ((**بدت الشوارع أكثر حيوية، فقد استغل الناس ساعات رفع حظر التجوال، كما يحدث في كل مكان، وانطلقوا باحثين عن الأشياء الضرورية، وغير الضرورية، التي تلزمهم عاجلا أو آجلا**))[٩٦]، ومنع اختلاط المصابين بغيرهم، ومع ذلك ينتشر بسرعة بين الناس ((**نبت الشبيهون كالفطر بعد المطر أصبحوا في كل مكان**))[٩٧]، ولا تقتصر عدوى التشابه على البشر فقط بل تشمل الحيوانات أيضًا في علاقتها بالإنسان ((**لأن هناك كثيرًا من الحيوانات أثبت العلم منذ زمن طويل أن خارطتها الجينية قريبة منا وعلينا أن نخشى هذه أولًا بمعنى أننا مهددون بأن نكون على صورتها**))[٩٨]، وتمضي الرواية في تصوير خطورة هذا الوباء، إذ لم تعد الحرب للقضاء على الاختلاف وإنما للقضاء على التشابه، حين يقتل من يصاب بالوباء ويكون شبيهًا لشخصية ذات مكانة في المجتمع ((**إذا ما كانت مناعتهم أضعف... بحيث يصبحون هم الصور بعد أن كانوا أصولًا**))[٩٩]، ويغدو هذا الوباء وباء عالميًا لا تقيده قيود ولا تحده الحدود ((**لعله بداية كارثة كونية، فالسلطات الأمنية هنا، وفي دول كثيرة، لم تعد تسمح بدخول أي سائح، بل وأغلقت الحدود أمام مواطنيها وألزمتهم بالبقاء حيث هم، ولم تكتف بهذا إذ قامت بنصب شباك إلكترونية من الأرض حتى بداية الفضاء الخارجي لمنع أي حيوان أو طائر أو طائرة من اجتياز الحدود بعد أن استفحل الأمر وأصاب القارات كلها**))[١٠٠].

وتنقل عدوى هذا الوباء إلى الكتابة في الميتاسرد ((**وحين أقول كراو عليم (أعني نفسه) أرجو ألا تذهبوا كقراء بعيدًا وتعتقدوا أن من يتحدث هو شبيهي استنادًا لشكوك السيدة سلام في زوجها، فلحسن الحظ، لا يستطيع أحد أن يقول إنه شاهد راويًا عليمًا في حياته، ليقول إنه شاهد شبيهه، فمن لا صورة له لا شبيه له**))[١٠١].

وفي رواية (هالوسين) للجزائري إسماعيل مهنانة، يظهر الوباء بوصفه تعبيرًا رمزيًا عن خطر ما، إلا أن تناول الوباء لا يكون ضمن نسقه المعتاد والتعريف بمخاطره وتأثيره على البيئة والأفراد والمجتمع؛ إذ يقوم التخييل فيها على المزج بين أحداث واقعية حدثت من كوارث طبيعية وبشرية وأحداث متخيلة.

وباء تخييلي يعاد تشكيله، وهو وباء خطير يصيب شمال أفريقيا كما يصرح الراوي، لكنه لم يكن وباء طبيعيًا معتادًا؛ إذ يأخذ بعدًا جديدًا يتمثل في وباء يضرب الجهاز الفكري للإنسان فيحوله إلى متعصب يرغب في الانتحار أو الموت، وينتقل الوباء من خلال الكلام وينتشر سريعًا من خلال فيروس الهالوسين الذي ينتقل من جيل إلى جيل، ويكون الحواس -طالب بكلية البيولوجيا- منذورًا للحس والترحال بحثًا عن الفيروس الذي أصاب البلد، وهو فيروس يعيد تراتبية أمور كثيرة كانت موضع الإهمال. وتظهر أعراض الوباء وتراكماته التي تقضي على الإنسان شيئًا فشيئًا، يقول الراوي عن هذا الفيروس "**كل من شاهدته يسقط تحت طائلته، كان يفقد شيئًا فشيئًا تلك القدرة على الربط بين الأحداث المتفرقة في سلسلة منطقية تشكل له معنى**"(١٠٢).

وفي نهاية الرواية يجلس الحواس في الطائرة العائدة من باريس إلى بلاده وهو يتصفح كتاب (شهداء الكلام المجذوم) للراهب الإسباني خيسوس دو ترينادا، وهنا تصنع الرواية مفارقة بين الوباء الواقعي(الجذام) كما ورد في الكتاب مرتبطًا بالكلام، والوباء المتخيل (الهالوسين) الذي ينتقل من الكلام أيضًا.

كما تسعى رواية (الآدميون) للجزائري إبراهيم سعدي إلى تشكيل وباء متخيل يحدث في المستقبل في عالم ديستوبي غريب، والراوي يصرح بذلك منذ البداية "**يوجد زمن ثالث غير الماضي والحاضر يا منار. و أنا آسف ألا أستطيع ذكره باسمه، فهو لا ذكر له ولا أثر في المعجم اللغوي للمملكة. نحن نجهل وجوده. أستطيع فقط أن أقول لك بأنه هو ما لم يعرفه من سبقونا في الماضي وما هو غير واقع في أيامنا، ولكنه سيقع في الزمن الثالث**"(١٠٣).

كما تذهب الرواية إلى رصد حالة البلاد قبل الوباء وبعده، فقبل الوباء "**درج أهل المملكة، في لقاءاتهم واجتماعاتهم، على تحويل كل ما يخطر في أذهانهم من أفكار وما سواها إلى كلمات منطوقة**"(١٠٤)، لكن هذه المملكة تتحول إلى مملكة ديستوبية، عالم غرائبي لا يحيل إلى مكان بعينه وهذا يعطيه سمة الكونية، ويجعله يخترق حدود المكان ليكون في كل مكان، بعد أن أصيبت هذه المملكة منذ قرون بوباء خطير ينتقل من خلال الكلام مما دفع الناجين إلى التزام الصمت لسبع سنوات حتى أطلق عليها أرض الصمت(١٠٥) فالعالم الجديد الذي تصوره لن يكون أجمل وأكثر أمانًا من الحاضر، وإنما هو عالم جديد تتبدى فيه القدرة البشرية الكامنة بخيرها وشرها "**يحمل جرثومة غريبة تنتقل عبر الكلام، راح يزرعها في مختلف ربوع المملكة... فقد أتت تلك الجرثومة على ما يقارب نصف سكان المأمونة...جعل أهل المملكة، تحت تأثير الصدمة، يقللون من الحديث، حتى إذا ما عرفوا بأن هذا الأخير ينقل الموت، أدركوا بأن علاجه هو الصمت، فصاموا عن الكلام**

لمدة سبع سنوات...واستبداله بالإشارة والكتابة والرسم لمن استطاع إلى ذلك سبيلًا"[١٠٦] ويكون الصمت خوفًا من عدوى التشابه بين البشر التي تنتقل بالكلام "**لقد سبق له وأن صادف من يشبهه على الأقل شيئًا كبيرًا، ربما حتى مثلما يشبه الماء الماء**"[١٠٧].

وخلاصة ما ذكرناه أن الوباء بين الواقع والتخييل في الروايات يقع ضمن أفعال وأزمنة ثلاثة، يوضحها الشكل المقابل.

المبحث الثالث/ أنساق التجربة الوبائية في الرواية العربية:

يترك الوباء عادة أسئلة مختلفة عن سر ظهوره وكيفية وأسباب انتشاره هذا الانتشار الكبير، وتختلف حوله الآراء وتكثر الأقاويل؛ فمنهم من يلجأ في تفسيره إلى الدين، ومن يفسره في إطار العقل والعلم، ومن ينظر إليه بوصفه كارثة أو حربًا جديدة لا تقل فتكًا أو خطورة عن الحروب العالمية وتأثيراتها المختلفة.

ويتشكل خطاب الوباء في الرواية العربية من مرجعيات ومستويات عدة، تظهر مدى الاختلاف في التعامل معه، وتصويره بوصفه خطابًا له أبعاده الاجتماعية والثقافية والصحية:

- يرتبط الأول بالرؤى الاجتماعية التي تنظر إلى الوباء بوصفه حدثًا مؤثرًا في بنية المجتمع (الفرد، الجماعة، الجسد الموبوء، المعاناة الإنسانية).
- ويرتبط الثاني بأنساق تحيل إلى علاقة الوباء بأبعاد دينية محضة أو بما يبثه المخيال الشعبي؛ لتربط بين الوباء والخطيئة، ولتجعلها المؤثر الفعلي في حدوث الوباء وتداعياته.
- وينطلق الثالث من الممارسات الطبية العلمية وما يرتبط بها؛ بوصف الوباء ظاهرة بيولوجية أولًا، إضافة إلى ما تشكله هذه الممارسات المرتبطة بالوباء من أبعاد رمزية ذات علاقة بالهيمنة والسلطة ونظرية المؤامرة ثانيًا.

ويمكن أن ننظر في أبعاد هذا الخطاب من خلال الأنساق التالية:

١. **النسق الاجتماعي/نسق الفرد والجماعة:**

يشكل تاريخ الأوبئة أهمية في دراسته غير أن هذا التاريخ ينطلق من منظور مختلف في التعامل مع الوباء، منظور لا يشبه منظور الأدب نفسه؛ فبينما ينصرف التاريخ إلى رصد الواقع وتبعات الوباء، ورصد تمثلاته التاريخية وتعاقباته الزمنية، ويعتمد على أرقام وإحصاءات دقيقة غالبًا؛ مما يحدد حجم الكارثة، يهتم الأدب برصد مشاعر الإنسان إزاء هذا الوباء، وينتقل من رصد الهم الإنساني الفردي إلى مستوى الهم العالمي الجمعي. وإذا كان التشخيص العلمي أو الطبي للوباء يمر بمراحل عديدة حتى يصل إلى شبه الحقيقة التي تداخلها الشكوك والتساؤلات المتكررة، فإن الأدب ليس بعيدًا عن هذا، حين يطرح الوباء ويصور استجابة الآخرين له؛ إذ تصور الروايات الوباء في طور التشكل والتطور والتفاقم، ومعه تصور المشاعر والضغوط التي تلعب دورًا مهمًا؛ كونها من وسائل المقاومة والبقاء على قيد الحياة.

ولما كانت الأوبئة تشبه الحروب والكوارث الطبيعية في كونها لحظات فاصلة في تاريخ الإنسانية، فإن الرواية تغدو تاريخًا وجدانيًا لهذه اللحظات، وتكثيفًا للذات الإنسانية والجمعية في مواجهة المصير المحتوم؛ إذ يبدأ الإدراك فرديًا ليتحول إلى إعلان جماعي ((**في اليوم التالي، بدأت كلمة وباء تتردد داخل المستشفى. في البداية بصورة سرية للغاية، بين كل طبيب ونفسه، ثم بين الطبيبين وبعضهما، وأخيرًا بصورة واضحة، رددها طاقم المستشفى، وعمال تنظيف الغرف، والزوار، والعاطلون الممددون في الحديقة المهملة المحيطة بالمكان. وباء... وباء... وباء...**))[١٠٨]، وعندها يتجلى الوجع الجمعي من مكان محدود(المدينة) إلى أماكن أكثر اتساعا وعمومية ليعم العالم كله ((**وباء... وباء خطير جدًا. كانت كل الدلائل في المدينة تشير إلى ذلك. كلها تصيح وتنطق**))[١٠٩] فعلى الرغم من تصوير الروايات لأماكن معينة ينتشر فيها الوباء وتركيزها عليها في سرد أحداث الرواية، إلا أن المكان في مثل هذه الروايات يتحول إلى مكان كوني يرتبط بمأساة كونية عالمية يتشارك فيها البشر الذين يقطنون أماكن مختلفة في العالم، ويحملون الهم والمصير نفسه ((**إنه الوباء الفتاك، شيء فظيع، نهاية العالم. الأموات بمئات الآلاف، بالملايين**))[١١٠].

وإذا كان الأدب في عمومه والرواية خاصة تعبيرًا عن عاطفة الإنسان إزاء الحياة وتحولاتها، فإن الوباء جزء من هذه الحياة، ومن الطبيعي أن ينعكس على الأدب وينعكس الأدب عليه أيضًا؛ حين يأتي الوباء ليحطم الآمال ويخرب التوقعات ويفتك بالأحلام. وعندها لا يكون الوباء عرضًا صحيًا فحسب، وإنما هو أنموذج ثقافي كما عبر عنه أرنولد[١١١] يتضمن أفكارًا وتداعيات متنوعة، وثيمة إنسانية تتعلق بألم البشرية جمعاء، ولا سيما أن الأوبئة تعد أزمات عالمية إنسانية تلقي بظلالها على أنحاء الأرض، وتحول العالم إلى دائرة كونية تواجه الوباء وتحاول القضاء على فيروساته، وقد يحدد هذا الوباء هويته الجديدة كما تتصورها الروايات الديستوبية ((**كل الوجوه مغطاة بأقنعة من قماش أو بأكياس من ورق أو بطرف حجاب. قليلون يضعون أقنعة خاصة**

مثلما أفعل، هؤلاء مميزون وكأن أقنعتهم لا تخفي هوياتهم، لا نفع في ارتداء قناع واحد مميز طوال الوقت. سيستبدل الواحد القناع بوجهه، ويصبح جزءًا من هويته"[١١٢].

والأوبئة في الرواية العربية تستحضر –أحيانًا- الذات/ النزعة الفردية بصفتها مادة خصبة للسرد الوبائي؛ حيث تتنازعها المشاعر والرغبات والصراعات داخل المؤسسة الاجتماعية وفي سياق الثقافة المهيمنة، إلا أنها من جانب آخر تستحضر الجمعية والجانب الجمعي للجائحة- وهو الأغلب- وانعكاساتها على المصير الإنساني للإنسان أيا كان انتماؤه؛ فالوباء ينتشر ويطول الجماعة لا الفرد فحسب. ولأن التجربة إنسانية ومشتركة وعامة؛ فإن الروايات لا تنطلق من تجربة ذاتية محضة، بقدر ما تعبر عن تجربة موضوعية تمس الواقع الذي اقترن بهذه الأوبئة، وتعايش معها في فترات زمنية متباعدة. كما تصور الوباء عدوًا للبشرية جمعاء مما يجعلهم صفًا واحدًا في مواجهته، وتتشابه ردات الفعل تجاه الوباء وتبعاته من الموت إلى الإصابات المزمنة إلى النجاة، كما في توالي الإصابات التي انتهت بالموت أو العمى في رواية مهاجر في زمن الجدري[١١٣].

وقد يكون الوباء كما صورته رواية (حرب الكلب الثانية) تدميرًا للهوية الذاتية؛ إذ تستفيد الرواية من الخيال العلمي في الكشف عن زيف الواقع وتشوهاته، كيف يمكن أن يتحول العلم/ الطب من نعمة إلى نقمة في أيدي الفاسدين؟ وكيف يمكن أن تكون التقنية وسيلة لهدم الخصوصية/ الفرادة والتميز، وإشاعة اشتراكية أو عولمة جديدة بمفهومها السلبي لا الإيجابي؟ حين ينتشر وباء التشابه الداخلي والخارجي بفعل الإنسان نفسه ليخرج عن سيطرته في مرحلة لاحقة، كما أن الجماعات الإنسانية تشترك في الآلام والأمراض والأوبئة وهذا يلغي التنوع والاختلاف وفقاً لرؤية اشتراكية[١١٤].

وعلى حين تنظر هذه الروايات في أجزاء منها إلى هذا الوباء الذي يهلك أقرب الناس إلى الفرد (الآخر القريب) فإنها لا تغفل(الآخر البعيد) كما في لويس نوا عامل النسيج البسيط الذي يفقد حبيبته إثر هذا الوباء الذي سينتقل إليه لاحقًا "**أرخى شال القطن الذي يضعه على كتفه، وهو من منتجات المصنع الذي يعمل فيه، غطى به نصف الوجه حتى يختفي جزء من كآبة الفقد**"[١١٥]، وتتخذ رواية مهاجر في زمن الجدري، ذلك الحدث الفردي منعطفًا للحديث عن أثر الوباء على الجماعة (الآخر البعيد)؛ فالوباء تدمير للهوية الجمعية من خلال النفي والنبذ والعزل والموت. وهو لا يفرق بين أحد ولا يستثني أحدًا من هذا التدمير "**كان عادلًا فلم يفرق بين الصغار والعجائز، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، التجار والمزارعين**"[١١٦].

كما تعمد الروايات إلى توثيق تداعيات الوباء من إقامة قسرية داخل البلاد وحجر منزلي وتباعد اجتماعي، وما فرضه الوباء من تغيير أساليب الحياة وظهور أساليب جديدة غير معتادة. وبشكل الانعزال وتجنب مخالطة الناس شكلًا من أشكال النبذ؛ فالإنسان كائن اجتماعي يحب الألفة والاختلاط بالآخرين، وإن كان النبذ يقترن بفكرة المنفى والغربة، ويرتبط بعوامل سياسية واجتماعية، إلا أنه يشير في أحد مستوياته إلى قرار مجتمعي

ينحو إلى إزالة فرد أو عنصر من عناصره يراه خطيرًا على ذلك المجتمع وأفراده، إذ يرى فوكو أن ((**معنى الحجز يستوعب داخله غاية اجتماعية، تسمح للجماعة بإقصاء العناصر الطفيلية أو الضارة**))[١١٧]. ويتخذ هذا النبذ صورًا متنوعة في تجربة الوباء الواقعية والسردية كذلك مع النظر إلى أبعادها المتخيلة داخل التجربة السردية نفسها؛ حيث نفي المصاب بالوباء وإخراجه من البلاد، أو عزله داخل المصحات منعًا لاختلاطه بالآخرين، أو حتى في مكان بعيد، فقد يكون في بستان بعيد مثلًا، فيكون ذلك البستان معزلًا طبيًا لا يخرج منه المصابون ولا يزورهم أحد ولا يختلطون بالباعة المتجولين أو الأطفال أو المارة كما صورته رواية مهاجر في زمن الجدري[١١٨]، أو بتخصيص جزيرة لفحص المهاجرين للتأكد من سلامتهم من الأوبئة والأمراض قبل دخول أميركا في رواية أميركا[١١٩].

وبين الجسد الموبوء ومعاناة النفس الإنسانية، ترصد الروايات حالة النفي والإقصاء من خلال إجراءات التخلص من جسد الموبوء بعد الموت ولفه في قطعة قماش ورميه في البحر، ثم تنظيف مكانه منعًا لانتقال العدوى إلى الآخرين [١٢٠]، والتشوهات التي تصيب الجسد عامة والوجه خاصة جراء هذه الأوبئة ((**بصمات الجدري تظل محفورة في وجوه من نجوا منه، لتبقى علامة فارقة ووصمة أقرب إلى العار في جبين المجدورين**))[١٢١]، ((**ظهرت حبوب على وجهها وذراعيها وساقيها. ظهرت بعد ذلك على بطنها وجنبها**))[١٢٢]، والبثور تركت ندبات، وبعض البثور مازال ظاهرًا[١٢٣]، كما تشير إلى أعراض هذه الأوبئة التي تبدأ بسيطة ثم تتفاقم حتى تترك الجسد الموبوء جسدًا لا روح فيه ((**كانت الحمى في أعلى درجاتها رغبة القيء لم تكن رغبة، لكنها قيء حقيقي، فيه مرارة ودم، النزف على أماكن متعددة في يديه وقدميه**))[١٢٤].

وتميل رواية مهاجر في زمن الجدري إلى الربط بين الوباء والهجرة التي تعد شكلًا من أشكال النفي والإقصاء؛ حيث تجاوز الاستقرار والجنوح نحو الترحال، وهو ما يمارسه الوباء وهو يرافق هؤلاء المسافرين في رحلتهم ((**صار الجدري يرحل مع المسافرين في أجسادهم ولم تعد الحصون ولا الحدود في البلدان قادرة على صد هجومه و انتشاره أينما حل البشر**))[١٢٥]. وحينها يتحول المهاجرون إلى حال تشبه حال المصابين بالوباء الذين لابد من إجراء الفحوصات الطبية اللازمة لهم قبل اختلاطهم بالآخرين، مع اشتباه إصابة البعض اثناء الرحلة بأوبئة مثل: جدري الماء والتراخوما تستدعي عزلهم لحين التأكد من وضعهم الصحي؛ منعًا لانتقال العدوى كما في رواية (أميركا).

وتتجاوز الروايات الحدث الفردي للموت، وما يترتب عليه من بكاء وفقد إلى أبعاد إنسانية أعمق؛ تتخطى الذات لتشمل الكون وما فيه من أفراد يوحدهم المصير نفسه، في رواية أميركا ثلاثة فصول عنونت بـ (أخرجوا موتاكم) حيث الجثث المكومة بلا عدد، والمقابر التي لا تتسع للجثث، والموت الجماعي في أبشع صورة[١٢٦]. كما يتجلى فعل القتل في (حرب الكلب الثانية) بوصفه إحدى آليات الإقصاء التي تمارس ضد الموبوء؛ بهدف

الحفاظ على النسخة الأصل والقضاء على النسخ المقلدة من الأشباه، وإن كان الجزم بأيهما الأصل أو التقليد كان أمرًا مستحيلًا في ظل ذلك التطابق العجيب بين الشخصيات.

٢.النسق الديني والشعبي/ الوباء والخطيئة (نسق الثواب والعقاب):

على الرغم من أن الثقافات باختلافها تصوغ تصوراتها الخاصة بما يتوافق مع معتقداتها وظروف تشكلها، إلا أن هناك تصورات مشتركة ذات صلة وثيقة بالثقافة الإنسانية؛ ففكرة الوباء والخطيئة/ فكرة الانتقام الإلهي من البشر عن طريق الأوبئة والأمراض ليست جديدة، وإنما شاعت في كثير من الحضارات القديمة الفرعونية واليونانية والعراقية وعند الهندوس؛ فقد كانت الآلهة يمكن أن تمنح الوقاية من الوباء أو تخفف من آثاره، أما إذا غضبت فإن غضبها يتخذ شكل الوباء العنيف الذي يجتاح أجساد الضحايا(١٢٧). كما يشير تودورف إلى أن المستعمرين في فتح أمريكا كانوا يتخذون مقولة (لماذا نكافح مرضًا أرسله الرب عقابًا لغير المؤمنين) ذريعة لعدم مكافحة الوباء في البلاد المستعمرة(١٢٨).

وكان العرب قبل الإسلام يعتقدون ذلك أيضًا، وفي الإسلام يشير القرآن الكريم إلى العذاب الجماعي الذي يحل بأمم وأقوام كاملة بسبب ارتكاب بعض أفرادها لخطيئة ما، كما في قوله تعالى: ((**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**))(١٢٩).

وفي أسطورة أوديب كان الوباء الذي عم المدينة وأتى على كل ما فيها عقابًا لأهل طيبة على الخطيئة التي ارتكبها أوديب، ولم ينحسر الوباء إلا بعد خروجه ورحيله منها(١٣٠). وظهرت هذه العلاقة بين الوباء والخطيئة في الأعمال الأدبية مثل الإلياذة حين تؤسر بنت قسيس للإله أبولو فيتفشى الطاعون في جيش اليونان، وحينها يكون الوباء –كعادته- بعدًا كونيًا؛ لا يصيب من يخرج عن قواعد الدين والأخلاق فحسب، بل يصيب الجميع عقابًا لهم. وما يذكره فوكو حول المريض في العصور الوسطى بأوروبا وربطه بالعذاب جراء الشرور التي يرتكبها في العالم، هو جانب آخر للربط بين الخطيئة والإصابة بالمرض أو الوباء(١٣١).

وقد استثمر هذا البعد في الروايات التي ربطت بين الوباء والخطيئة كما في إيبولا، يرتكب البطل خطيئة قبل الجائحة حين يرتبط بعلاقة مع عاهرة من خارج البلاد، يظنها عابرة لكنها ستفتح أبواب طوفان وباء إيبولا؛ ليحول القرية إلى بؤرة للعذاب والموت بسببه، حيث ضرب الكونغو وامتد على مدينة أنزارا في جنوب السودان، والخطيئة تستوجب النبذ كما يكون الوباء كذلك سببًا للنبذ كما أسلفنا. كما تذهب الرواية إلى ربط الوباء بفعل سحري ينتقل من جسد إلى آخر كما يتصوره العامة في المخيال الشعبي(١٣٢). وهذا البعد نجده أيضًا في رواية مهاجر في زمن الجدري حين يعلل حدوث الوباء بالفساد والخطيئة ويردد العامة هذه العبارة ليعلنوا أن سبب الوباء هو خطايا الناس وكثرة ذنوبهم ((ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس))(١٣٣). وهي آية

قرآنية تشير إلى الدلالة نفسها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١٣٤].

٣.النسق الثقافي/ نسق القوة والضعف:

يعد الطاعون ومعه الكوليرا والجدري من أكثر الأوبئة حضورًا في التاريخ والأدب؛ ذلك أن حضورها المتكرر في تاريخ الأمم كان له دور حاسم في تغيير بعض مجريات التاريخ؛ إذ يشير أحمد العدوي في كتابه (الطاعون في العصر الأموي)[١٣٥]، إلى أن الطاعون لعب دورًا مهمًا في سقوط الدولة الأموية. وبهذا المعنى يمكن أن يتحول الوباء إلى وسيلة سياسية حربية مقصودة أو غير مقصودة، إذ تتضمن رواية عين شمس إشارات عابرة إلى حلم الطبيب المهاجر الذي سيعيد البهجة إلى الأرض بعد تطهير بيئتها من الآثار المدمرة لها، وهنا تكون الحرب وجهًا من وجوه الوباء[١٣٦]، إضافة إلى ربط رواية فئران أمي حصة الوباء والحرب في صورة تكاملية؛ فما الوباء سوى حرب ضد فيروسات لا ترى وتعبث بمصائر البشر، إضافة إلى تشابه إجراءات فرض حظر التجوال والقرار في البيوت في الحالتين[١٣٧]، ((**يشير بذقنه إلى الشارع. تبتسم عيناه من وراء الكمام. يمد كفه يصافحني: احموا الناس من الطاعون..**))[١٣٨]. والإنفلونزا الأسبانية في رواية (أميركا) حدثت في أعقاب الحرب العالمية الأولى في أوروبا والعالم بين عامي ١٩١٨-١٩٢٠ وخلفت من القتلى ما يعادل ضعف من توفوا في الحرب العالمية الأولى؛ فالظروف المرتبطة بالحرب كما في سوء التغذية، والخدمات الطبية المتواضعة في المخيمات وسوء النظافة، كلها عوامل تعزز العدوى، وتسهم في انتشار الوباء.

ولعل ارتباط التدخل الطبي في البلاد المستعمرة بالجانب العسكري كان سببًا في هذا التعالق الذي نجده بين الوباء والحرب في أكثر من رواية؛ فالوباء وسيلة حربية عسكرية كما يشير ديفيد أرنولد في كتاب (الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية)[١٣٩] وعلاج المعارك الصحية هو في الأصل عملية عسكرية، حين استغلت الأوبئة لقمع حركات الرفض والمقاومة، كما أن علاج الأوبئة وسيلة لإحكام السيطرة أيضًا؛ لذا كان العذر الوحيد للاستعمار هو الطب الذي يمكن أن يقيد البلاد المستعمرة[١٤٠]، ولم يكن الطب عقلانيًا أو إنسانيًا كما يفترض[١٤١].

ويشير شيلدون واتس في كتابه (الأوبئة والتاريخ.. المرض والقوة الإمبريالية)[١٤٢] إلى الصلة بين الأوبئة وحركات الاستعمار؛ إذ يفرق بين ما قبل الاستعمار وبعده، فإذا كان ما قبل الاستعمار ارتبط بنظرة الطب للإنسان والمرض أو الوباء وفق تصور واحد لا ينظر إلى البيئة المحيطة، فإن فترة ما بعد الاستعمار تنبه إلى ارتباط بعض الأوبئة مثل: الملاريا والحمى الصفراء بالمستعمرات الأفريقية؛ ومن هنا كانت بحاجه إلى تعديل نموذجها الاستعماري، إما باتخاذ مناطق أخرى أكثر أمنًا بوصفها مستعمرات جديدة، أو وضع تدابير معينة لمقاومة الأوبئة في تلك المستعمرات مع استغلال ذلك ثقافيًا، لتبرير ضرورة استعمار تلك المناطق للقضاء على الجهل والتخلف والمرض فيها؛ لذا فإن الطب نفسه وسيلة لنقل الأفكار الإمبريالية، والمؤسسات الطبية التي تنشأ لمقاومة الأوبئة ليست إلا صورة تمثل علاقة السيطرة بين الحاكم والمحكومين.

وهذا يسلمنا إلى أن الطب والاكتشافات العلمية المقاومة للأوبئة أو حتى الصانعة لها أداة من أدوات السلطة والهيمنة، وهي قضية مهمة لفتت انتباه عدد من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين والنقاد في إطار تناولهم لخطاب المرض والوباء وتداعياته الفلسفية والفكرية، كما عند فوكو الذي اهتم بالمرض والصحة من خلال مؤلفاته تاريخ الجنون[١٤٣] وولادة العيادة: حفريات التشخيص الطبي[١٤٤]، وربط الممارسات الطبية والقضايا الصحية بالنظم الاجتماعية والسياسية التي تحتضنها وتتخذ دور السلطة في المجتمع. وقد عرض تودورف هذه القضيه في كتابه (فتح أمريكا، مسألة الآخر) من خلال ثلاثة أشكال يتخذها المستعمر للقضايا على ضحاياه: القتل المباشر من خلال الحروب والمسؤولية هنا تكون مباشرة، المعاملة السيئة والمسؤولية هنا تكاد تكون مباشرة، وعن طريق الأمراض والأوبئة، فالصدمة الميكروبية تقضي على الجانب الأكبر من السكان وتكون المسؤولية عنها موزعة وغير مباشرة[١٤٥]، حين تكون الأوبئة واحدة من أسلحة المستعمر ضمن ما يسميه تودورف (الحرب البكتريولوجية)[١٤٦] كما أن إدوارد سعيد في كتابه (الثقافة والإمبريالية)[١٤٧] لفت النظر إلى الخطاب الاستعماري عامة، وفي رواية الطاعون لألبير كامو خاصة، حين درس علاقة الأدب الوبائي بالاستعمار من خلال هذه التجربة الروائية؛ حيث إن اختيار المكان (وهران- الجزائر) لم يكن بريئًا، وبحث في اتصاله تاريخيًا بالحركة الاستعمارية الفرنسية نفسها، والمعارضة الصريحة المباشرة لاستقلال الجزائر أيضًا.

وهنا يتحول الطب وما يرتبط به إلى موضوع ثقافي بوصفه نتاجًا ثقافيًا متغيرًا يخضع لعلاقات القوة والمعرفة؛ فيكون أداة من أدوات السلطة والهيمنة خلافًا لما هو معروف عنه بوصفه تطبيقًا علميًا منضبطًا، لا سيما أن التقدم العلمي الطبي الغربي جاء متزامنًا مع توسع الاستعمار الغربي، وتأثير هذا التقدم على الشعوب التي خضعت للاستعمار كما يشير إلى ذلك كتاب (الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية)[١٤٨].

ويمكن أن يتخذ هذا التأثير مسارين مهمين:

- الأول: قلق المستعمر من الأوبئة والأمراض التي كانت تجتاح تلك الشعوب المغلوبة؛ إذ تشكل خطرًا يهدد المستعمر كذلك، كما يهدد تلك الشعوب، ومن هنا، ينبري هذا الطب لاكتشاف مسببات تلك الأوبئة بهدف القضاء عليها أولًا، وتحقيق مصالح المستعمر في المنطقة ثانيًا؛ إذ يضمن له ذلك الاستفادة من خيرات المناطق المستعمرة وتسخير الشعوب.

- الثاني: تخليص المجتمعات المستعمرة من بعض أنماط الحياة التي تسببت بها الأوبئة والأمراض؛ بوصفه الأنموذج الحضاري الذي سيأخذ بهؤلاء إلى ركب الحضارة التي تخلفوا عنها.

وهذه البيئات التي يتفشى فيها الوباء، وتلك التي تحظى بعناية تختلف عن بيئات أخرى، وتلك التي تكون محرومة منها بفعل تهميشها، هذا التميز الحاصل على صعيد المعاناة واللامساواة المتعلقة بممارسات التحيز

والإقصاء حتى في منظور التعامل مع الأوبئة والأمراض، نجده في روايات مثل: حرب الكلب الثانية، الآدميون، أحلام القيامة، إيبولا.

في رواية (حرب الكلب الثانية) يوظف الطب ويحول إلى أداة لاستغلال الآخرين، حيث الهروب من الوباء إلى الوباء؛ حين تصور الرواية مجتمعًا يستخدم فيه القوي الجينات والاستنساخ للسيطرة على أفراد المجتمع، وتصنيفهم في فئات اجتماعية محددة (القادة أو النخبة/ الموظفون/ العاطلون) فالطب تجارة مربحة تعتمد على أوجاع الآخرين ونشر الأمراض للكسب منها "**خلال ستة أشهر، ومع تزايد الأمراض وشيوع أمراض جديدة، استطاع راشد أن ينتقل إلى مرتبة جيران أصحاب الملايين**"[١٤٩] ويلعب الإعلام دورًا مهمًا في خداع الناس ونشر معلومات قد لا تكون دقيقة "**بعد إعلان الخمس دقائق، ارتفع خلال أسبوع مستوى الثقة بالقطاع الصحي**"[١٥٠].

كما أن طبيعة البيئة التي يظهر فيها الوباء في رواية (إيبولا) ودون محاولات لصده تسهم في انتشاره أكثر وأكثر "**إلى أن تكتشف سلطات هذه المنطقة المحرومة من سرعة البديهة، بحكم بعدها وبدائيتها، وتسلط عادات الجهل على مجتمعها، يكون القاتل الرهيب قد قضى على ثلث السكان، بلا أي مقاومة تذكر**"[١٥١]، وعندها تفشل مثل هذه البيئات لتعلن حالة الطوارئ وانهيار منظومة الصحة[١٥٢]، كما تصور الرواية نفسها كيف تحظى الرعايا الأجنبية بالاهتمام من دولهم المتقدمة بينما يموت من يعيش في تلك البيئة الفقيرة من أهلها الأصليين، مع أن هؤلاء الأجانب قدموا في مهمات تصنف بالإنسانية، ومواجهة الأمراض والأوبئة جزء من هذه الأعمال، لكنهم يؤثرون السلامة لأنفسهم على خدمة هذه البيئات الفقيرة ذات النفوذ الأقل[١٥٣].

وفي رواية (أحلام القيامة)، هناك شركة إيطالية ناشئة تعمل في مجال الهندسة الوراثية وتعديل الشفرة الجينية[١٥٤] واستغلال دول العالم الثالث لتكون حقلًا للتجارب البشرية بعيدًا عن أعين الحكومات[١٥٥]، وتبدأ الرواية باكتشاف ٣٥ جثة مدفونة في ملعب جولف بمدينة الجونة ليكشف لاحقًا عن أنها تعود لضحايا الوباء الذين أخضعوا لتجارب سريرية غير نظامية بهدف إنتاج لقاح مقاوم للوباء.

وفي استشراف بعض الروايات التي تناولت الأوبئة للكوارث التي يمكن أن تحل بالبيئة جراء هذه الأوبئة، كما في ازدياد عدد اللاجئين، التغيرات المناخية المميتة التي تشهدها الأرض مع افتراض (نظرية المؤامرة) كما في روايتي (حرب الكلب الثانية، أشباح الجحيم) يمكن النظر في خطورة ما تقترفه اليد البشرية في تأثيرها على البيئة والطبيعة، والقضاء على مظاهر الحياة فيها. ويشير فرانك سنودين[١٥٦] إلى هذه النظرية التي تربط بين ظهور الوباء ودور الإنسان فيه وتطوير فيروساته؛ حين انتشر وباء الكوليرا وظهرت نظرية المؤامرة في فرنسا التي أكدت بأن الوباء هو من صنع الإنسان؛ مما تسبب في اندلاع موجة عنف ضد الحكومة بعد انتشار الوباء وموت ما يقارب ٢٠ ألف فرنسي، يقول: "**إن الأمراض الوبائية ليست أحداثًا عشوائية تصيب المجتمعات**

بشكل نزوي ودون سابق إنذار بل العكس من ذلك كل مجتمع يتميز بخصوصياته ونقاط ضعفه الخاصة، ولدراستها يجب فهم بنية المجتمع ومستوى معيشته وأولوياته السياسية((.

وقراءة هذا البعد السياسي في الوباء يتمثل في حال بعض الدول الكبرى التي تجعله محركًا رئيسًا لاعتماد الوباء بوصفه حربًا بيولوجية وبائية ضمن ما يعرف بنظرية المؤامرة. وإذا كان اتخاذ الأوبئة والاكتشافات الطبية العلمية بوصفها أسلحة بيولوجية تستغل ضد الأضعف، فإن رواية أشباح الجحيم توظف هذه الأسئلة وتوجهها نحو الأقوى ضمن نظرية المؤامرة ((**نحن الذين نعرف كيف ننقذ الباقي. ولدينا شروطنا قبل التدخل... فيروسنا محصن لا يهزم. طفرة جينية صاعقة. ثورة كبيرة. إنه سلاحنا الفتاك**))[١٥٧] فالوباء بوصفه مرضًا معديًا له صفة الانتشار حيث إن المرض، العدوى، سرعة الانتشار تشكل ثلاثية الوباء، وينشأ عند دخول أجسام ملوثة إلى جسم الإنسان (جراثيم أو فيروسات أو فطريات) يتخذ وسيلة لمقاومة المستعمر؛ فتكون المواجهة بالسلاح نفسه الذي يستخدمه المستعمر، وهذا ما مارسته مابعد الكولونيالية (مابعد الاستعمار) حيث لجأت إلى تفكيك اتجاهات مادية ومعنوية وثقافية واجتماعية وسياسية؛ لتجاوز التبعية إلى الاعتزاز بالذات المحلية والإقليمية. يقول الراوي: ((**لن يسمح أقرانهم الغربيون بصعودهم إلى دفة الاعتراف العلمي. إذ إن العنصرية الحقيقية كانت دومًا فكرية... إنهم لا يحبوننا، ونحن لم نعد نحتمل عجرفتهم... علينا أن نكبدهم خسارة فادحة انتقامًا من الشر الذي سلطوه علينا**))[١٥٨] ويقول في موضع آخر: ((**المهمة النهائية. التي ستجبر الغرب الكافر على الاستسلام دون قيد ولا شرط، وسنعتلي نهائيًا الصفوف الأولى في مرتبة الأمم**))[١٥٩] لتكون نقطة التحول الفعلية ((**سيولد عصر جديد، ولن ينظر إلينا الغرب بالازدراء القديم**))[١٦٠]، فالعلاقة بين المستعمر والمستعمر وفقًا لذلك ليست مسألة قوة وضعف فقط بل مسألة تنسيق وتفاعل ومواجهة كما يشير تودورف؛ مما يغير قوة طرف في صراعه مع الآخر[١٦١].

تطرح هذه الرواية فكرة ابتكار وسيلة حرب بيولوجية، يمكن أن تكون في أيدي الشعوب المهمشة مثل الشعب العراقي، من خلال قضية العربي الذي يعيش في صحراء العراق قبل مداهمة الغزو الأمريكي، والتداعيات التي طالت المنطقة إثر سقوط صدام، يعيش هذا الشاب العربي تحولات بين الغزو والمقاومة، ثم العمليات الانتقامية ومن بينها مهمته الخطيرة التي يرسل من أجلها إلى الأردن ثم لبنان؛ حيث تنتظره مهمة يشرف عليها طبيب في العاصمة بيروت، وكانت مهمته الانتحارية أكبر عملية تحدث على أرض معادية وتفوق قدرتها التدميرية هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول آلاف المرات[١٦٢]، وتتمثل هذه المهمة في حقنه بفيروس ينتقل عبر التنفس، قبل أن يسافر إلى لندن ويبث أنفاسه هناك في المطار ومحطات الميترو والمساحات العامة والحدائق؛ لإفشاء العدوى التي ستنتقل لأوروبا كافة وأمريكا[١٦٣]، بعد أن فشل مشروع الأمم المتحدة في العراق (الغذاء مقابل البترول)[١٦٤]، وانهارت معه المنظومة الصحية، وعجزت عن الوفاء بالاحتياجات

الصحية للمواطنين الذين تعاقبت عليهم الأمراض؛ وهنا تكون مقاومة هذا الوباء الذي حل بالعرق بوباء آخر يوجه نحو أعدائها ((**فيروس... فيروس... بدأت معالم كلمة فيروس تتحدد، تسلم لي سرها شيئًا فشيئًا- ميكروب، زكام، مرض، وباء، علاج، مستشفى... الفيروس ستحمله أنت**))[١٦٥] يقول البروفيسور: ستحمل أنت الفيروس ليرد ((**جئت لأتلقى الفيروس سيكون سلاحي قنبلتي وآلتي الانتحارية**)) ومع ذلك يرفض البطل العربي -لدوافع إنسانية- في آخر لحظة إتمام العملية حتى لا يعرض البشرية للخطر[١٦٦].

خاتمة:

يمثل الشكل الروائي الشكل الأدبي الأنسب في تناول تجربة الوباء؛ إذ يمكنه هذا الشكل من التقاط التجربة الوبائية بأبعادها كافة جسدية واجتماعية وثقافية، لاسيما أنه يقوم على تنوع الأحداث وتشعبها، وتعدد الشخصيات، وتحولات المكان والزمان، كما يخضع للتجريب الذي ميزه بخصائص وسمات بلورت طرائق جديدة للإبداع- مع وجود اختلاف بطبيعة الحال بين رواية وأخرى كما وضح البحث- وقد تنوعت الروايات التي حضرت فيها التجربة الوبائية بين الروايات التاريخية أو ذات البعد التاريخي، روايات الخيال العلمي، روايات الديستوبيا(المدينة الفاسدة)، الروايات البينية وخاصة تلك التي تعتمد التداخل بين الأدب والعلم عامة والطب خاصة، والروايات البيئية التي تركز اهتمامها على قضية البيئة وما يرتبط بها، ثم الروايات التنبؤية التي تستشرف ما لم يأت بعد، وما أحدثته هذه التجربة من بلورة بعض المفاهيم والإشارة إلى التغيرات في العالم؛ مما شكل فضاء إبداعيًا سرديًا، يتقاطع مع هذه التغيرات ويناقش تلك المفاهيم.

كما أن استحضار الأوبئة في هذه الروايات، كان تارة محركًا رئيسًا للسرد؛ تنطلق الرواية منه وتعود إليه، وتارة أخرى كان داعمًا ومحفزًا للأحداث السردية الأخرى التي لا تنفصل عن أحداث الوباء نفسه، واعتمدت بعض الروايات استدعاء الوباء مجردًا ضمن الفترة الزمنية التاريخية التي تستدعيها، أو بعد تخييله ودمجه في التجربة السردية الجديدة.

وقد رصد البحث تجليات الأوبئة في الرواية العربية بين الواقع والتخييل في أربعة أشكال؛ حيث استفادت الروايات من التجربة الوبائية لتحويلها إلى تخييل من زوايا عديدة، فكانت الروايات التي تعاملت مع الوباء بوصفه حدثًا واقعيًا مر في فترة زمنية ماضية، والروايات التي اعتمدت على تخييل الوباء الواقعي وربطه بالحاضر، أو استشراف الوباء الواقعي المستقبلي، أو تشكيل وباء جديد استنادًا على عناصر الوباء نفسها وظروف تشكله وانتشاره؛ إذ تتحول هذه التجارب من ذاكرة الماضي إلى ذاكرة الحاضر ثم إلى ذاكرة المستقبل المتوقع.

وانطلاقًا من الظواهر التي وجدناها تتكرر في معظم الروايات (مدونة البحث) لا سيما ما يدخل منها ضمن أشكال(التخييل والاستشراف والتشكيل) التي شكلت أنساقًا تنطلق من تجربة الوباء وتعود إليها؛ تشكل خطاب الوباء من مرجعيات ومستويات متنوعة تعود إلى الرؤى الاجتماعية والأبعاد الدينية الشعبية والممارسات العلمية وأبعادها الرمزية، وقد عالج البحث هذه العلاقة ورصد تشكلها في الأنساق التالية:

- النسق الاجتماعي (نسق الفرد والجماعة)، حين يكون الوباء حدثًا مؤثرًا في الفرد والجماعة ومعه تتشكل معاناة الجسد الموبوء والنفس المتألمة، كما تستحضر الروايات الجانب الجمعي للوباء؛ إذ لا تنطلق من تجربة ذاتية محضة، بل قد يغدو الوباء فيها تدميرًا للهوية الذاتية، وكذلك الهوية الجمعية من خلال النفي والنبذ والعزل والموت.
- النسق الديني والشعبي (نسق الثواب والعقاب) حيث الربط بين الوباء والخطيئة؛ لتكون الخطيئة سببًا في حدوث الوباء ثم انتشاره وحدوث تداعياته أيضًا.
- النسق الثقافي (نسق الضعف والقوة) إذ يتحول الطب ومعه الاكتشافات العلمية لمحاربة الوباء أو نشره أو السيطرة عليه، إلى موضوعات ثقافية بوصفها نتاجًا متغيرًا يخضع لعلاقات الضعف والقوة وأداة من أدوات السلطة والهيمنة، أو جزءًا من نظريات المؤامرة الشائعة.

هوامش البحث:

(١) منظمة الصحة العالمية https://www.who.int/ar

(٢) بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الضفاف، ط٢، ٢٠١٥ صدرت الطبعة الأولى في العام نفسه.

(٣) مراكش: دار القبة الزرقاء، ط١، ٢٠٢٠.

(٤) القاهرة، بيروت، تونس: دار التنوير، ط٤، ٢٠١٧ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٥.

(٥) بيروت: دار الآداب، ط٥، ٢٠١٤ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٩.

(٦) بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠١٢.

(٧) بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٦، ٢٠١٨ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٦.

(٨) تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧.

(٩) بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠١٧.

(١٠) بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠١٩.

(١١) الجزائر: دار الجزائر تقرأ، ط١، ٢٠١٨.

(١٢) الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٨.

(١٣) دبي: دار ملهمون للنشر، ط١، ٢٠١٩.

(١٤) دار السندباد، ط١، ٢٠٠٩.

(١٥) حائل: منشورات نادي حائل الأدبي، ط١، ٢٠٠٣.

(١٦) الكويت: دار كلمات، ط١، ٢٠١٩.

(١٧) منصة كتبنا، ط١، ٢٠١٨.

(١٨) ترجمة: محمد ساري، بيروت: دار الفارابي، الجزائر: سيديا، ط١، ٢٠٠٧.

(١٩) بيروت: دار المكشوف، ط١، ١٩٣٩.

(٢٠) بيروت: دار الآداب، ط١، ١٩٥٤.

(٢١) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢، ١٩٩٧.

(٢٢) بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠٠٥.

(٢٣) القاهرة: دار نهضة مصر للنشر، ط٢٠١٣.

([٢٤]) القاهرة: دار الشروق، ط٢٠٠٩.

([٢٥]) الكويت: دار سعاد الصباح، ط ١٩٩٣.

([٢٦]) بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٩٨٥.

([٢٧]) القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٢٩.

(٢٨) جورج لوكاش، الرواية التاريخية، ترجمة: صالح الكاظم، العراق: وزارة الثقافة والإعلام، ط٢، ١٩٨٦ ص٨٩.

(٢٩) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية) الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر، ط١، ٢٠٠٦، ص١١٤.

([٣٠]) آن ماري توماس، كبث بوكر، المرجع في روايات الخيال العلمي، ترجمة: عاطف يوسف محمود، القاهرة: المركز القومي للترجمة،ط١، ٢٠١٠،ص١٢٧.

([٣١]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([٣٢]) سلمى أبو زيد العشري، حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في فن التصوير المعاصر، بحوث في التربية الفنية والفنون، مج٢١،ع١(٢٧٥-٢٨٨) ص٢٨٢.

(٣٣) أشار جراج جرارد في كتابه (النقد البيئوي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠٠٩.) إلى طبيعة النصوص الأدبية التي تكون مناسبة لتطبيق هذا النوع من النقد، فالنقد البيئي هو دراسة لنصوص بيئية في المقام الأول.

([٣٤]) منظمة الصحة العالمية https://www.who.int/ar

(٣٥) صالح بن رمضان، التفكير البيني- أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، ص ٥.

(٣٦) علاقة الأدب بالطب وثيقة وقد سميت بعض الاضطرابات والأمراض النفسية والجسدية نسبة إلى شخصيات روائية أصيبت بها، وكأن الأدب يستشرف المرض والوباء قبل حدوثه واقعيًا ومتابعة الطبيب له والكشف عن أعراضه (متلازمة عطيل في إشارة إلى الغيرة الوهمية أو المرضية التي ظهرت في مسرحية عطيل لشكسبير) (متلازمة أليس في بلاد العجائب/ الصداع النصفي أو الشقيقة التي تجعل المريض يشعر بتغيير حجم جسمه خلال نوبات المرض، وهو اضطراب إدراكي كما كان يحدث للفتاة الصغيرة أليس، ويرتبط بفيروس أيضًا لكونه أحد أسباب ظهور أعراض المتلازمة لدى الأطفال.

([٣٧]) الرواية، ص٥٥.

([٣٨]) الرواية، المقدمة ص٩.

([٣٩]) رجاء الهبطي، تصور التخييل الأدبي، مجلة مجرة، المغرب، ربيع ١٩٩٦، ص،٧٢،٧٣.

(٤٠) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، تونس: دار محمد علي للنشر، بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠١٠، ص٧٤، ٧٥.

([٤١]) المرجع السابق، ص٧٥.

([٤٢]) الهبطي، تصور التخييل الأدبي، ص٧٥.

(٤٣) بول ريكور، من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقيبة، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ط١، ٢٠٠١، ص٨.

(٤٤) الرواية، ص ١٥٨.

(٤٥) صدر كتابان تاريخيان يحملان هذا العنوان (سفر برلك) وهي عبارة تعني التهجير القسري: محمد الساعد، سفر برلك.. قرن على الجريمة العثمانية في المدينة المنورة، دار مدارك، ٢٠١٩، سعيد بن وليد طولة، سفر برلك وجلاء أهل المدينة المنورة إبان الحرب العالمية الأولى، نادي المدينة المنورة الأدبي، ط٢.

(٤٦) الرواية، ص٣٤، ٣٥.

(٤٧) الرواية، ص١٥٦.

(٤٨) الرواية، ص٢٧.

(٤٩) الرواية، ص١٤.

(٥٠) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، بيروت: مكتبة الفكر الجامعي، د.ت، ص٦٧.

(٥١) معجم السرديات، ص٧٦.

(٥٢) معجم السرديات، ص٧٤، ٧٥.

(٥٣) وقد يكون الوباء أو الفيروس المسبب له هو الرواي نفسه ،كما في رواية هواء فاسد لأحمد خالد توفيق التي تتحدث عن الملاريا، وطفيل هذا الوباء يحكي قصته وتاريخ ظهوره، ومحاولة العلماء اكتشاف مصل مضاد له، حرب طاحنة تدور بينه وبين الطب البشري ((لم لا؟ إنني لست كائنًا بسيطًا أبله.. أنا أجلب السقم لنحو ثلاثمائة مليون شخص وأقتل حوالي مليوني شخص كل عام.. أي أنني أفتك بإنسان كل نصف دقيقة)) المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩.

(٥٤) الرواية، ص٥٣.

(٥٥) على سبيل المثال، ص ٢٣.

(٥٦) الرواية، ص٥٣.

(٥٧) الرواية، ص١٠.

(٥٨) الرواية، ص ٢٠.

(٥٩) شيلدون واتس، الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة الإمبريالية، ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبدالجواد، مراجعة: عماد صبحي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط١، ص ١٣.

(٦٠) الرواية ص١١٦.

(٦١) الرواية، ص٣٠١،٣٠٢.

(٦٢) الرواية، ص ٢٩.

(٦٣) الرواية، ٣١٨، ٣١٩.

(٦٤) ميشيل فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي، عبدالسلام بن عبدالعالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٨، ص٦.

(٦٥) الرواية، ص٣٠٢.

(٦٦) الرواية، ص٣١٩.

(٦٧) عبدالرحمن العكيمي، الاستشراف في النص، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٠، ص١٧، ١٨.

(٦٨) الرواية، ص١٤١.

(٦٩) الرواية، ص ١٤٢.

(٧٠) بول ريكور، الزمان والسرد، ج١، الحبكة والسرد التاريخي، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، مراجعة: جورج زيناتي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٦.

(٧١) الرواية، ص٦٩.

(٧٢) تزفيتان تودورف، فتح أمريكا ومسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، تقديم: فريال جبوري غزول، القاهرة: سينا للنشر، ط١، ١٩٩٢، ص١٤٣.

(٧٣) الرواية، ص ٤٠١.

(٧٤) الرواية، ص٢٦، ص٢٨٠.

(٧٥) بول ريكور، الذاكرة والسرد، ترجمة: سعيد مندي، عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٦، ص٦٥، ٦٦.

(٧٦) الرواية، ص٧٤.

(٧٧) الرواية، ص٤٥.

(٧٨) الرواية، ص٢١٠.

(٧٩) الرواية، ص١٦.

(٨٠) جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٠، ش ك ل.

(٨١) نصر حامد أبو زيد، دراسة في علوم القرآن، بيروت، الدر البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠، ص٢٣٠.

(٨٢) حصة المفرح، عتبات النص في نماذج من الرواية في الجزيرة العربية، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٧، ص٢٠٨.

(٨٣) المرجع السابق، ص٢١٠.

(٨٤) الرواية، ص٢٥١.

(٨٥) الرواية، ص٧٨.

(٨٦) الرواية، ص٢٥٤.

(٨٧) الرواية، ص٢٥٤.

(٨٨) الرواية، ص٢٥٥.

(٨٩) الرواية، ص٢٥٥.

(٩٠) الرواية، ص ٢٥٨.

(٩١)رواية حرب الكلب الثانية تفوز بالجائزة العالمية للرواية العربية، بوكر ٢٠١٨، جريدة الوطن(إلكتروني)

(٩٢) الرواية، ص ١٩٨.

(٩٣) الرواية، ص١٩٥.

(٩٤) الرواية، ص٢٠١.

(٩٥) الرواية، ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٩٦) الرواية، ص٢٧٢.

(٩٧) الرواية، ص١٩٤.

(٩٨) الرواية، ص ٢٣٤.

(٩٩) الرواية، ص٢٢٣.

(١٠٠) الرواية، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(١٠١) الرواية، ص٣٢٧.

(١٠٢) الرواية، ص ١٩٣.

(١٠٣) الرواية، ص٧٠.

(١٠٤) الرواية، ص٢٢.

(١٠٥) الرواية، ص١٨.

(١٠٦) الرواية، ص٢٩.

(١٠٧) الرواية، ص٦٠.

(١٠٨) إيبولا،ص٦٥

(١٠٩) إيبولا، ص٧٢.

(١١٠) اشباح الجحيم، ص٣٦٥.

(١١١) الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية،ص١٥.

(١١٢) عطارد، ص٤٥.

(١١٣) الرواية، ص١١٧.

(١١٤) تناولنا هذا البعد في الرواية في موضع آخر من البحث، انظر ص٢١، ص٢٢.

(١١٥) إيبولا، ص١٣.

(١١٦) مهاجر في زمن الجدري، ص١١٦.

(١١٧) ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦، ص١٠٣.

(١١٨) الرواية، ص١٢٣.

(١١٩) الرواية، ص٤١.

(١٢٠) أميركا، ص٣٢.

(١٢١) مهاجر في زمن الجدري، ص ١١٩.

(١٢٢) أميركا ص٢٣.

(١٢٣) أميركا، ص٢٦.

(١٢٤) إيبولا، ص ٤٧ وكذلك ترد هذه الأعراض في ص ٦٣ أيضًا.

(١٢٥) مهاجر في زمن الجدري ص١٩.

(١٢٦) الرواية، ص٣٠٤-٣١٢.

(١٢٧) دافيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والأدب، ١٩٩٨ ص٧٩.

(١٢٨) فتح أمريكا ومسألة الآخر، ص١٤٦.

(١٢٩) سورة العنكبوت - الآية ٤٠.

(١٣٠) عبدالمعطي شعراوي، أساطير أغريقية، ج١، أساطير البشر، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ٢٠١٤، ص٣٥٠-٣٥٣.

(١٣١) ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص٢٦.

(١٣٢) ظهر هذا البعد في رواية حارة الزعفراني لجمال الغيطاني كما أسلفنا حيث يكون انتشار الوباء بفعل رقية سحرية، انظر ص٤ من البحث.

(١٣٣) الرواية، ص ١١٦.

(١٣٤) سورة الروم - الآية ٤١.

(١٣٥) الطاعون في العصر الأموي: صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، بيروت، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، ط١، ٢٠١٨.

(١٣٦) عين شمس ص ١٠٧.

(١٣٧) فئران أمي حصة، ص٣٣٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص٣٤٨.

(١٣٩) دافيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ص٩٥-ص١٠٠.

(١٤٠) المرجع السابق، ص١٥.

(١٤١) المرجع السابق، ص٩.

(١٤٢) شيلدون واتس، الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة الإمبريالية، ص١٦.

(١٤٣) مرجع سابق.

(١٤٤) ترجم الكتاب إلى العربية بعنوان: ولادة الطب السريري، ترجمة: إياس حسن، الدوحة: المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٩.

(١٤٥) تودورف، فتح أمريكا ومسألة الآخر، ص١٤٣.

(١٤٦) المرجع السابق، ص ،١٤٥.

(١٤٧) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: دار الآداب، ط٤، ٢٠١٤، ص٢٣٥.

(١٤٨) ص ١٥.

(١٤٩) الرواية، ص٤٦.

(١٥٠) الرواية، ص٧٠.

(١٥١) الرواية، ص٤١.

(١٥٢) الرواية، ١٢٨.

(١٥٣) إيبولا، ص ١٤٠.

(١٥٤) الرواية، ص١٢.

(١٥٥) الرواية، ص١٢٤.

(١٥٦) الأوبئة والمجتمع، من الموت الأسود حتى الوقت الحاضر: نقلا عن تاريخ موجز للأوبئة من الموت الأسود إلى فيروس كورونا، إعداد: ريكي لويس، ٦ يوليو ٢٠٢١، ٣ م

(١٥٧) الرواية، ص٣٥٧.

(١٥٨) الرواية، ص ٢٠.

(١٥٩) الرواية، ص٢٩٤.

(١٦٠) الرواية، ص ٣٣٠.

(١٦١) فتح أمريكا ومسألة الآخر، ص١٥.

(١٦٢) الرواية، ص٢١.

(١٦٣) الرواية، ص ٣٥٧.

(١٦٤) الرواية، ص٣٨.

(١٦٥) الرواية، ص٣٢٥، ٣٢٦.

(١٦٦) الرواية، ص٣٧٨، ص٣٨٠.

مصادرومراجع البحث:

أولًا/ المصادر(مدونة البحث):

- بودي، هيثم. الدروازة في زمن الطاعون، دار السندباد، ط١، ٢٠٠٩.
- تاج السر، أمير. إيبولا ٧٦، بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠١٢.
- التوفيق، أحمد. جيران أبي العباس، مراكش: دار القبة الزرقاء، ط١، ٢٠٢٠.
- جابر، ربيع. أميركا، بيروت: دار الآداب، ط٥، ٢٠١٤ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٩.
- جمال، محمد. أحلام القيامة، منصة كتبنا، ط١، ٢٠١٨.
- الحبردي، علي. حمى قفار،حائل: منشورات نادي حائل الأدبي، ط١، ٢٠٠٣.
- الخزنة، عمار. مهاجر في زمن الجدري، الكويت: دار كلمات، ط١، ٢٠١٩.

- خضرا، ياسمينة. أشباح الجحيم، ترجمة: محمد ساري، بيروت: دار الفارابي، الجزائر: سيديا، ط١، ٢٠٠٧.
- ربيع، محمد. عطارد، القاهرة، بيروت، تونس: دار التنوير، ط٤، ٢٠١٧ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٥.
- سعدي، إبراهيم. الآدميون، الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٨.
- السنعوسي، سعود. فئران أمي حصة، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الضفاف، ط٢، ٢٠١٥ صدرت الطبعة الأولى في العام نفسه.
- الصاعدي، سعود. عين شمس، بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠١٧.
- العلوي، مقبول. سفر برلك، بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠١٩.
- محمد، سيما. أرذل الفقد، دبي: دار ملهمون للنشر، ط١، ٢٠١٩.
- المطوع، حسين. تراب، تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧.
- مهنانة، إسماعيل. هالوسين، الجزائر: دار الجزائر تقرأ، ط١، ٢٠١٨.
- نصر الله، إبراهيم. حرب الكلب الثانية، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٦، ٢٠١٨ صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٦.

ثانيًا/ المراجع العربية:

- حسين، طه. الأيام، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٢٩.
- الديب، علاء. زهر الليمون، الكويت: دار سعاد الصباح، ط١٩٩٣.
- الراهب، هاني. الوباء، بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠٠٥.
- بن رمضان، صالح. التفكير البيني-أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: مركز دراسات اللغة العربية وآدابها.
- أبو زيد، نصر حامد. دراسة في علوم القرآن، بيروت، الدر البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠.
- شعراوي، عبدالمعطي. أساطير أغريقية، ج١، أساطير البشر، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ٢٠١٤.
- الشمالي، نضال. الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية) الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر، ط١، ٢٠٠٦.
- العدوي، أحمد. الطاعون في العصر الأموي: صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، بيروت، قطر: المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٨.
- العشري، سلمى أبو زيد((حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا كمدخل للاستلهام في زمن التصوير المعاصر)) بحوث في التربية الفنية والفنون، مج٢١، ع١(٢٧٥-٢٨٨).
- العكيمي، عبدالرحمن. الاستشراف في النص، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٠.
- عواد، توفيق يوسف. الرغيف، بيروت: دار المكشوف، ط١، ١٩٣٩.
- الغيطاني، جمال. وقائع حارة الزعفراني، القاهرة: دار نهضة مصر للنشر، ط٢٠١٣.
- القاضي، محمد وآخرون. معجم السرديات، تونس: دار محمد علي للنشر، بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠١٠.
- محفوظ، نجيب. ملحمة الحرافيش، القاهرة: دار الشروق، ط٢٠٠٩.
- المفرح، حصة. عتبات النص في نماذج من الرواية في الجزيرة العربية، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٧.

- مكاوي، سعد. السائرون نياما، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧.
- ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٠.
- مينه، حنا. المصابيح الزرق، بيروت: دار الآداب، ط١، ١٩٥٤.
- نصر الله، إبراهيم. براري الحمى، بيروت: المؤسسة العربية للعلوم ناشرون، ١٩٨٥.
- الهبطي، رجاء.((تصور التخييل الأدبي)) مجلة مجرة، المغرب، ربيع ١٩٩٦(٧٢-

ثالثًا/ المراجع المترجمة:

- أرنولد، دافيد. الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والأدب، ١٩٩٨.
- بوتور، ميشال. بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، بيروت: مكتبة الفكر الجامعي، د.ت.
- تودورف، تزفيتان. فتح أمريكا ومسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، تقديم: فريال جبوري غزول، القاهرة: سينا للنشر، ط١، ١٩٩٢.
- توماس، آن ماري، بوكر،كبث. المرجع في روايات الخيال العلمي، ترجمة: عاطف يوسف محمود، القاهرة: المركز القومي للترجمة،ط١، ٢٠١٠.
- جرارد، جراج. النقد البيئوي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠٠٩.
- ريكور، بول:
  - من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقيبة، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ط١، ٢٠٠١.
  - الزمان والسرد، ج١، الحبكة والسرد التاريخي، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، مراجعة: جورج زيناتي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٦.
  - الذاكرة والسرد، ترجمة: سعيد مندي، عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٦.
- سعيد، إدوارد. الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: دار الآداب، ط٤، ٢٠١٤.
- فوكو، ميشيل:
  - جينالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي، عبدالسلام بن عبدالعالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٨.
  - تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦.
  - ولادة الطب السريري، ترجمة: إياس حسن، الدوحة: المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٩.
- لوكاش،جورج. الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد الكاظم، العراق: وزارة الثقافة والإعلام، ط٢، ١٩٨٦.
- واتس، شيلدون. الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة الإمبريالية، ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبدالجواد، مراجعة: عماد صبحي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط١.

رابعًا/ المراجع الإلكترونية:

- الأوبئة والمجتمع، من الموت الأسود حتى الوقت الحاضر: نقلا عن تاريخ موجز للأوبئة من الموت الأسود إلى فيروس كورونا، إعداد: ريكي لويس
- **رواية حرب الكلب الثانية تفوز بالجائزة العالمية للرواية العربية، بوكر ٢٠١٨، جريدة الوطن**